٢٣٠

HARLEQUIN

روايات احلام

وردة الصحاري

مارغريت واي

WWW.ELROMANSIA.COM

مرمورية

وردة الصحاري

الوردة توحي دائماً بالرقة والوداعة، فكيف يمكن لوردة أن تعيش قسوة الصحراء؟

هل يستطيع الحب أن يحمي جمال فرانسيسكا دوليل الهش من الذبول تحت شمس الصحراء؟ هل يكفي وجود حبيبها غرانت بقربها لكي يظلل حياتها؟ هل يمكن للمرأة، أي امرأة، أن تتخلى عن الحياة الرغيدة وعن قصر طفولتها فقط من أجل الحب؟

أسئلة بعمر الحب وبعمر العلاقة بين الرجل والمرأة... ولم يرد غرانت أن يطلب من فرانسيسكا هذه التضحية، فقد كان مقتنعاً أن فرانسيسكا لن تتحمل أن تصبح عروسه.. مدى الحياة.

WWW.LIILAS.COM

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١.٥٠ دينار	مصر: ٥ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

ISBN 9953150559

١ ـ كبرياء الأسود

في ساعة متأخرة من بعد الظهر هبط غرانت كاميرون بالطوافة فوق مرج بعيد عن كيمبارا. حط بنعومة كما يحط طائر البليكان على مياه البحيرة.. وأثارت محركات المروحية عاصفة غبار اختلطت مع قصاصات العشب، وتطاير بحر من الزهر من دغلة مزهرة قريبة. لكن كل هذا تلاشى عندما توقفت شفرات المروحة.. أنهى غرانت تفحصه لقمرة القيادة، ثم خلع الخوذة تحضيراً للقفز فوق العشب.

هذه هي «كيمبارا ستايش» التاريخية، المعقل الصحراوي لعائلة «كينروز» منذ أول عهد المستعمرات. وكان أوبال داونز الجار الأقرب لمزرعة عائلته على بعد مئة ميل تقريباً إلى الشمال الشرقي.

شقيقه الأكبر، راف، الذي يحبه ويحترمه كثيراً، يمضي شهر العسل في الولايات المتحدة، مع عروسه الجديدة، وحب حياته.. أليسون كاميرون المولودة كينروز.. وكان راف يدير المزرعة. في حين أنّ غرانت يؤسس لعمل ناجح جداً في خدمات جمع الماشية جواً، انطلاقاً من أوبال. وهذا ما يناسب الأخوين جيداً، راف مربي ماشية، وغرانت طيار.

لطالما كان غرانت مولعاً بالطائرات، حتى أن مقتل أبويهما المحبوبين في تحطم طائرة، لم يقتل حبه للطيران.. وفي تلك المناطق البعيدة الشاسعة، كان الطيران طريقة العيش الأنسب في أوستراليا..

وعلى المرء أن يتعايش مع المآسي.

مد غرانت يده إلى سترته ليضعها على كتفيه. لا تزال شمس «كيمبارا» حارقة، يذكره بها لون بشرته الأسمر، العلامة المميزة لأسرة كاميرون. وكان الناس يصفون والده، دوغلاس كاميرون، وولديه راف وغرانت «بكبرياء الأسود».

كبرياء الأسود!

للحظة خنقته صورة حزن رهيب.. كان يتمنى من كل قلبه لو أن والده لا يزال حياً، وأمه كذلك.. لو انهما تمكنا من رؤيته يحقق النجاح بنفسه، لافتخرا به.. لطالما كان الأخ الأصغر، نوعاً من القطط البرية، يحاول أن يثبت نفسه في ظل أخيه. وكان راف قد وُلد ليحمل المسؤولية، وعلى استعداد لاستلام المهمة من أبيهما.

بعد أن خرج غرانت من الطوافة، دار بسرعة حولها، وعيناه تفتشان عن أي مشكلة محتملة، مع أن الأسطول الجوي جيد الصيانة.. كان جسم الطائرة، مع الخط الأزرق الذي يزيّنه، وشعار الشركة باللونين الأزرق والذهبي، يصدر طقطقة، مع تبرد المعدن، فربت على الشارة برضى، وانطلق نحو المنزل.

كان يومه مرهقاً، فقد قاد قطيعاً كبيراً من الماشية المشاكسة التي تعاني من القيظ الشديد من المراعي النائية.. وما يحتاج إليه الآن، هو مرطب بارد، وامرأة جميلة يمتع نظره بها.

فرانسيسكا.

وليس بالضرورة بهذا الترتيب.. لكن فرانسيسكا تحتلّ معظم أفكاره هذه الأيام.. فالليدي فرانسيسكا دوليل، ابنة عمة برود كينروز، سيد كيمبارا وشقيق «آلي» كنة العائلة.. اسم كاميرون وكينروز اسمان أسطوريان في هذا الجزء من العالم، ورائدان عملاقان.

الآن، وبزواج راف وأليسون، اتحدت العائلتان أخيراً، وبرضى الجميع، ما عدا، ربما، لايني رودز، من «فيكتوريا سبرنغز» التي لطالما كانت مولعة براف.. ولم يكن السبب أن لايني ليست مرشحة جيدة للزواج، بل لأن آلي كانت الحبيبة الوحيدة بالنسبة إلى راف.

الرابط الذي لا ينفصم بينهما متجذر كالفولاذ منذ طفولتهما. وها هما زوجان سعيدان جداً ومن كل النواحي. ويعرف غرانت جيداً أن من الأفضل له أن يبدأ بالتخطيط لزواجه هو.

بالرغم من المساحة الشاسعة لبيت الآباء والأجداد في «أوبال»، إلا أن غرانت لم يشأ التطفل على خصوصيات أخيه وزوجته آلي. فهما سيرغبان في أن يكون المنزل لهما وحدهما، مهما حاولا التأكيد له أن أوبال هو منزله كما هو منزلهما.. ربما سيكتفي بحصة كبيرة من المزرعة، تموّل أعماله الجوية في جمع الماشية.. لكن منزل العائلة هو للزوجين العروسين، وهو مصمم على هذا.. إضافة إلى أن زوجة أخيه آلي، لديها خطط كثيرة لترميم المكان، وتعتقد أن المكان بحاجة إلى ترميم.

كيف يمكن للمرء أن يشعر وهو متزوج؟

بماذا يشعر لو عاد إلى البيت كل ليلة ليجد المرأة التي يمكن أن يضمها إلى قلبه، ويأخذها إلى فراشه؟ امرأة تشاركه آماله وأحلامه، وتوقعاته الأكثر غرابة. امرأة ينتمي إليها كما تنتمي بكل ثقة إليه.

التقى فرانسيسكا دوليل، للمرة الاولى وهو في سن المراهقة، وأحس بخفقان فوري، وبإلفة عميقة. وهو الآن وبعد سنوات طوال، لا يزال يحلم بها، فلماذا إذن، هو مقتنع بأن أي علاقة له بفرانسيسكا لن تتسبب لهما سوى بالمتاعب؟ ربما لم يكن مستعداً بعد لعلاقة عميقة.. اللعنة.. أوليس مشغولاً كثيراً ليلتزم؟ يجب ألاّ يشغل تفكيره سوى

بعمله.. وبتطوير هذا العمل.. فلديه أفكار كثيرة.

هناك فرع لشركة «طيران كاميرون» لنقل البريد والشحن.. لكنه قصد مؤخراً «بريزبن» عاصمة الولاية، التي تبعد ألف ميل، وناقش مع «درو فورسايت»، وهو ممول عالمي، أمر بناء أسطول من الطوافات لاستكشاف المعادن والبترول والغاز الطبيعي.

كان قد التقى فورسايت وزوجته الجميلة، أيف، في مناسبات عدة.. لكنها المرة الأولى التي يجلسان فيها معاً في حفلة خيرية، ويبحثان الفكرة جدياً، وكان عليه شكر فرانسيسكا من بين كل الناس على هذا.

لم تكن فرانسيسكا، على ما يبدو لتفوت أي فرصة علاقات عامة جيدة تمر بها.. وهي التي تعرفت على عائلة فورسايت في تلك الحفلة الخيرية وبحثت الفكرة خلال الأمسية الممتعة.

وبعينين زرقاوين جميلتين، قالت لفورسايت:

ـ ألا تروقك هذه الفكرة؟ غرانت يعرف داخل البلاد كظاهر يده.. وهو ملتزم تماماً بالصورة العريقة، أليس هذا صحيحاً غرانت؟

ومالت نحوه، فاتنة تخطف الالباب في فستانها الحريري، وصوتها الجميل الهادىء الإنكليزي الصافي، مفعم بالدعم والتشجيع. آه.. إنها الهالة المشرقة للأصل الطيب!

إنها ذكية.. وإذا كان لصفقة كبيرة أن تثمر، وهذا ما يعمل عليه الآن، فالفضل يعود لها. وهو مدين لها بعطلة نهاية أسبوع رومانسية رائعة يمضيانها معاً، على إحدى تلك الجزر المرجانية الشبيهة بالجواهر. سيضطر إلى تأملها جيداً تحت أشعة شمس «كوينزلاند» الحارة.. بشرتها صافية ناعمة وشعرها احمر جميل.. من الغريب أنها تريد أن تتأقلم مع محيطه على أطراف الصحراء العظيمة.. فالأمر أشبه

بتربية الورد على ضفاف خزان طيني جاف.. ومع كل انجذابه العميق والفوري لها، إلا أنه من المستحيل، أن يتناسبا. ومن الأفضل ألاّ يغيب هذا عن باله.

لكن هذه النقطة غابت عنه لاحقاً حين ظهرت فرانسيسكا وهي تركض على طول الشرفة الجانبية وتستند على السياج الحديدي الأبيض، تحت ظليلة من البنفسج المتعرش الذي يبعث عطراً مغرياً في الحرارة الذهبية.

لوحت بسعادة تنادي: «غرانت! كم جميل أن أراك.. سمعت الطوافة فعلاً».

كان هناك حلاوة مغرية في كل خط من خطوط جسمها.. حلاوة وإثارة.

قال آمراً بلطف شديد وهو يتقدم نحوها: «تعالي إلى هنا».

ومد ذراعه يجذب إليه الرأس الجميل.. وبالرغم من كل المواعظ التي أعطاها لنفسه، وبالرغم من كل الحذر الطبيعي، ركزت كل ذرة من كيانه على ضمها إليه، حتى أنه تمتم باسمها دون وعي، والإثارة تجتاحه وكأنها ضجيج محرك الطوافة.. لماذا بحق السماء يحصل له هذا؟ لكنه رجل ووسيم أيضاً.

حين تركها، كانت مقطوعة الأنفاس، تحاول ألاّ ترتجف. وتصاعد لون زهري قاتم إلى خديها، فيما شعّت الأنوار في أعماق عينيها.. أما شعرها الجميل بلون النار، فانفلت من رباطه وانسدل حول وجهها وعلى كتفيها.. ولم يكن صوتها أكثر من همس مرتجف:

ـ يا لها من تحية!

قال يحذرها، وهو لا يزال يشعر بحرارة الابتهاج تسري في جسده: «يجب ألاّ تنظري إليّ بهذه الطريقة!».

ـ أي طريقة؟

ضحكت مرتجفة، وهي تشعر بأنها مأسورة بقوته، وراحت تتراجع في الشرفة العريضة، فيما يتابع تقدّمه نحو المنزل.

قال بصوت أجش: «أتعرفين فرانسيسكا، أنت متعة للنظر المتعب!».

وأخذ يتأملها من قمة رأسها المتوهج إلى أخمص قدميها. عيناه اللوزيتان، اللتان قد تتحولان إلى اللون الرمادي أو الأخضر حسب مزاجه، بدتا الآن خضراوين صافيتين، تحت حافة قبعته. تفرستا في وجهها، وعنقها الطويل، وجسمها النحيل بخصره الضيق، وأخذت عضلة في فكه ترتجف.

كان من المستحيل عليه إبعاد نظره عن جمالها الأنثوي. ووجد ذلك الجمال الفاتن لا يقاوم. كانت ترتدي ثياب فروسية، ويا لها من ثياب فروسية! إنها شابة أرستقراطية إنكليزية من أسرة نبيلة كبيرة، وإحدى أكثر النساء اللواتي عرفهن، إيماناً بالمساواة.

كانت بلوزتها القصيرة الأكمام، العاجية اللون ترسم جسمها بأناقة، وقد وضعتها تحت بنطلون ركوب الخيل الضيق، والمتناسق اللون.. أما حذاء الركوب اللماع، والباهظ الثمن، فيزين قدميها.. ولم يكن يشوبها وزن زائد.. بل تتحلّى بوركين جميلين نحيلين، وساقين طويلين مستقيمين. وكاد النظر إليها وهي تتحرك على الشرفة، وتتراقص في خطواتها لتلاحق خطواته، يسمّره في مكانه والحرارة الشديدة تنبعث من تفكيره وجسده. لا مجال للخطأ في شرارات الكهرباء التي ترسلها، وهي تبدو وكأنها تطير، وقدماها بالكاد تلامسان الأرض الخشبية.

سألته فرانسيسكا وهو يصعد السلم الحجري القصير المؤدي إلى

الشرفة: «هل كان يومك متعباً؟».

استند على السياج بأناقة متكاسلة وهو يبتسم لها بعيني قطة لا ترفان، جذابتين بجنون:

ـ لقد تجاوزت تعبي الآن بعد أن رأيتك.. ماذا فعلت طوال النهار؟

أشارت إلى الأثاث الخيزراني الأبيض المريح المصنوع من الخيزران: «تعال وسأقول لك، أعتقد أنك ترغب في شراب بارد؟ برود يحبه دائماً».

هز رأسه وخلع قبعته، وراح يلوح بها كالمروحة. وجلست فرانسيسكا في مقعد قدمه لها وهي تقول:

ـ ستكون ريبيكا هنا بعد لحظة.

وريبيكا هي سيدة كيمبارا، وزوجة برود الجديدة.

ـ كنا ننظم رحلة.. وفكرنا في أن نجري شيئاً من التغيير، ونستبدل لعب «البولو» العادي. ريبيكا تقلق على برود حين يلعب.. إنه مغامر خطير.. وأنت كذلك.

وارتجفت لبعض الذكريات.. فلعبة البولو خطيرة، خاصة بالطريقة التي يلعبها فيها هؤلاء الشبان.

أسرها بعينيه: «إذن أنت تقلقين عليّ كذلك؟».

ردّت بخفة قبل أن تغرق في تعابير وجهه: «أقلق عليكم جميعاً».

وذُهلت أكثر من أي وقت مضى للشبه ما بين غرانت وشقيقه، من حيث القوام الممشوق، والمظهر الوسيم، ولو أن غرانت أكثر سحراً.

وكان لكليهما حضور بارز، ولو أن هناك فارق، فإن لراف نوع من الكياسة في طبعه، وما من كلمة أخرى لهذا.. بينما يُظهر غرانت حدة طباع، وطاقةً تنّقد نشاطاً، وتصميماً لا يجد الراحة مع أي كان. باختصار، إن غرانت كاميرون صعب المراس، كما أنه صريح، يقول ما

يتبادر إلى ذهنه. وهو مفعم بالحيوية، والشجاعة، وبرجولة تميز هؤلاء الرجال في هذه الأماكن النائية.. في بعض الحالات كان يبدو كمخلوق من عالم آخر.. مخلوق من الفضاء الشاسع غير المحدود... صورة ليث رائع تناسبه تماماً. وأدركت أن مشاعرها نحو غرانت كاميرون، تخرج عن سيطرتها.

عقد حاجبيه الذهبيين القاتمين في عبوس، وراح ينظر إليها، وذراعاه السمراوان القويان، المفتولا العضلات متكئان على طاولة زجاجية. كان يرتدي الزي الخاص بشركته، وبدا الشعار الأزرق والذهبي على جيب الصدر.. وداعب نسيم بعد الظهر شعره البني الكثيف بتموجه العميق البارز.

اقترب منها يمسك يدها.. لا يريد أن يتركها: «إذن، ما هو الحكم سيدتي؟».

ضحكت واحمر وجهها: «وهل كنت أحدق بك؟ آسفة، كنت فقط أفكر كم تشبه راف.. ويزداد الشبه وأنت..».

قاطعها بسرعة: «ناضج أكثر؟».

قالت بتوبيخ لطيف: «أوه غرانت».

كانت فرانسيسكا تعرف أن الأخوين مخلصان لبعضهما، لكن راف اضطر للعب الدور الأبوي في سن مبكرة. وكان غرانت يميل إلى الغضب، ويسعى باندفاع لتحقيق حلم والده فيه. لذا كان مدفوعاً بطموح فج، وطاقة لا تلين.

قالت له بلطف، وهي تراقب جسمه الطويل النحيل وعضلاته الرياضية المسترخية:

ـ في الواقع، كنت سأقول، وأنت تكبر في السن.

قال موافقاً بابتسامة ساحرة ماكرة كشفت عن أسنان بيضاء:

ـ بالطبع هذا ما كنت ستقولينه.. أحياناً فرانسيسكا، أشعر أن هناك شيطان مشاكس في داخلي.

قالت بلطف: «أجل.. أعرف هذا».

ـ أحب راف تماماً كأي اخ.

ـ أعرف هذا أيضاً.. وأعرف ما تعنيه. لذا، لا تزعج نفسك بالشرح.

أفضل العلاقات يشوبها شيء من التوتر، مثل علاقة الأم بابنتها.. وأدارت رأسها حين سمعت وقع أقدام في الردهة.

بعد لحظة ظهرت ريبيكا مثل نسمة صيفية.. تعلو وجهها الابتسامة. لامست كتف فرانسيسكا بمحبة قبل أن تكلم غرانت الذي هبّ واقفاً على الفور:

ـ لا تزعج نفسك بالوقوف غرانت، هل انتهى عمل اليوم؟

ابتسم: «والشكر للسماء».

ـ إذن، ستكون ممتناً لشراب بارد!

ضحك عالياً وعاد إلى مقعده:

ـ لقد درّب برود نساء منزله جيداً.. لقد عرضت فرانسيسكا عليّ لتوها بعض العصير.. وسيكون هذا عظيماً ريبيكا.. يجب أن أعترف أن يومي كان طويلاً وصعباً ومغبراً.. وأكاد أموت عطشاً.

صدمه مرة أخرى كم تغيرت ريبيكا. فهي لم تعد الامرأة الشابة الغامضة التي جاءت إلى كيمبارا، لتكتب سيرة حياة «في كينروز» والدة فرانسيسكا، التي شهدت نجاحاً كبيراً على مسارح لندن.

منذ زواجها من برود، بدت ريبيكا مليئة بالود والدفء والسعادة، والرضى يشع من عينيها الرماديتين غير العاديتين.. وفكر غرانت، أن هذا زواج ناجح.. والله يعرف أن برود وآلي، عاشا طفولة كالجحيم مع

أب متعجرف نذل.. حتى ستيوارت كينروز كان موافقاً على راف، ولو أنه لم يعش ليراه متزوجاً ابنته الوحيدة أليسون.

كان غرانت واثقاً من أن كينروز ما كان ليوافق عليه أبداً.. فقد وصفه يوماً «بالمتهور صاحب العادة السيئة بالتعبير عن آرائه بصراحة» هذا يتعارض وبالطبع مع صاحب السعادة اللورد كينروز.. مع ذلك، كانت عائلتا كاميرون وكينروز مختلطتين دائماً، وكأنهما عشيرة واحدة.. وها هما الآن أنسباء.

حين عادت ريبيكا بالعصير البارد، والشاي المثلج لها ولفرانسيسكا، تحدثوا بأمور عائلية. آخر اتصال تلقوه من راف وآلي، الشائعات المحلية، وما ينوي فعله «في» و «دايفد» ويستبوري وقد أصبحا الاثنان متلازمين إلى درجة أن فرانسيسكا لن تندهش لو تلقت مخابرة هاتفية، يقولان فيها أنهما سيسجلان زواجهما في اليوم ذاته.. فتكون هذه تجربة الزواج الثالثة لـ «في».

وكانوا لا يزالون يتكلمون عن «في» وأهمية الدور الذي ستلعبه في السينما الأوسترالية، حين قاطعهم صوت رنين جرس الهاتف. وهو المعجزة الأخيرة في هذه الأماكن النائية، التي اعتمدت لمدة طويلة على الاتصالات اللاسلكية.. وذهبت ريبيكا لتجيب، فعادت بتعبير سرق كل ضحكة من عينيها.

ـ المخابرة لك يا غرانت.. إنه بوب كارلتون.

إنه سكرتيره والمسؤول من بعده.

ـ إحدى الطائرات لم تصل إلى القاعدة.. بدا قلقاً، خذ المكالمة من مكتب برود.

وقف غرانت قائلاً: «شكراً ريبيكا، هل قال في أي مزرعة؟».

لامست ريبيكا جبينها وكأنها توبخ نفسها: «آسفة! كان يجب أن

أقول لك على الفور إنها مزرعة «يونيرونغ»».

كانت هذه المزرعة أبعد بكثير من مزرعتهم، حوالى الستين ميلاً إلى الشمال الغربي. وقطع غرانت طريقه عبر المنزل، الذي اعتاده منذ الطفولة.. كان منزلاً كبيراً مذهلاً بالمقارنة مع معقل كاميرون، بتصميمه القيكتوري الطراز.. بالطبع، سوف تغير آلي كل هذا. لكن غرانت كان مشغول الفكر بما سيقوله بوب.

كان بوب ضخم الجسم في أواسط الخمسين من عمره.. منظم كبير، وميكانيكي رائع، يحبه الجميع. وكان غرانت يعتمد عليه.

وتلقى غرانت عبر الهاتف تأكيد بوب على أن الطوافة مرت بخدمة الصيانة التي تتم كل مئة ساعة.. وكان على الطوافة أن تحط عند الساعة الرابعة تقريباً حيث يخيم مربو الماشية في المزرعة البعيدة من «بانرونغ».. لكن الطيار، وهو خبير في جمع الماشية، لم يصل عند الخامسة إلا ربعاً، حين اتصلت المزرعة ببوب بواسطة الراديو.. ولم يتمكن بوب بدوره من الاتصال بالطيار عبر جهاز الشركة، ومحطتها اللاسلكية.

وقال غرانت الذي لم يكن قلقاً جداً في هذه المرحلة: «لا تقلق نفسك كثيراً».

رد بوب: «أنت تعرفني غرانت.. سأقلق كثيراً.. هذا ليس من عادة كورلي.. إنه يعمل حسب جدول زمني ثابت».

ـ بالتأكيد.. لكنك تعرف أن الراديو قد يتعطل.. هذا ليس بالأمر الغريب. لقد حدث لي هذا.. كما أن الغروب يكاد يحل.. ولعل كولي حطّ في مكان ما وأقام مخيمه لينام.. فلديه كل ما يحتاجه ليرتاح.. وسيعاود الطيران عند ساعات النهار الاولى.. ولو كان مثلي، فلا بدّ أنه متعب جداً.. أضف إلى أنه لن يبدأ بجمع الماشية قبل

صباح الغد على أي حال.

كل هذا صحيح، لكن غرانت أكمل:

ـ لا يزال أمامنا ساعة تقريباً قبل أن يحل الظلام.. سآخذ الطوافة وألقي نظرة..

تنهد بوب: «أعتقد أنه من الأفضل أن ننتظر حتى الصباح.. ومن الممكن أن يظهر كورلي.. وقد ترسل المزرعة رسالة لنا، سأنقلها لك».

هكذا تقرر الأمر.. كورلي لديه طعام يكفيه، وأرجوحة نوم. وسيحط على الأرجح قرب بحيرة في الأدغال، ويقيم مخيماً لقضاء الليل.. مع ذلك شعر غرانت أن من واجبه أن يستقل الطوافة ويبحث قليلاً قبل حلول الظلام.

مزاج بوب أثر عليه.. أمّا تجربته فقد أوحت له أن كورلي بخير وقد نصب خيمة في مكان ما، وأنه يواجه المتاعب مع الراديو.. لكن يجب أن يعرف أين يتواجد كل طيار من طياريه وطائراته.

اجتاز غرانت المنزل بسرعة وما إن وصل إلى الشرفة حتى اخبر المرأتين الشابتين عمّا ينوي القيام به.

قالت فرانسيسكا بسرعة: «لمَ لا تصطحبني معك؟ ألا تعرف المثل القائل زوجا عيون خير من زوج واحد؟».

هزت ريبيكا رأسها موافقة: «لقد ساعدت بوب يوماً في البحث والإنقاذ ألا تذكر؟».

قال غرانت: «نعم لقد حصل ذلك في «بيتش بارون». ولكن فرانسيسكا ليست معتادة على ركوب الطوافة.. ولا على الطيران، والحرارة، والضجيج.. وقد تصاب بكل سهولة بدوار الجو».

ابتعدت فرانسيسكا عن كرسيها: «أنا لا أعاني من دوار الحركة أبداً

يا غرانت، لا في الجو ولا في البحر.. أرجوك خذني.. أود تقديم المساعدة في حال استطعت».

خيّب رده آمالها، وكانت عيناه اللوزيتان تحجبان خوفاً محتملاً من أن تصبح عبئاً عليه. لكنه في النهاية هز رأسه:

ـ حسن جداً آنستي! دعينا نذهب.

بعد دقائق قليلة، هدر المحرك وأخذت الطوافة ترتفع بهما فوق الأشجار قبل أن تتجه نحو الصحراء. احتلت فرانسيسكا مقعد مساعد الطيار، ووضعت السماعات على أذنيها. بعد لحظات، وجدت أن تجربة التحليق في الجو، والنظر إلى البرية الواسعة، بتشكيلاتها الصخرية، وعشبها المرتفع، مثيرة حقاً. حتى أنها حافظت على هدوئها عندما حلّقا، والريح تهزّ الطوافة، بحيث أصبحت قيادتها تبعث على الدوار.

كلّمها غرانت عبر السماعات، وتقطيبة قلق عميقة بين عينيه: «هل أنت بخير؟».

ـ أجل.. أجل.. أيها الربان.

ورفعت يدها لتؤدي له التحيّة.. هل يظن حقاً أنها ستنهار كسيدة عجوز أو أنها ستصاب بالدوار؟ لا، فدم الرواد يسري في عروقها.. وجدّها هو «أيوان كينروز» ملك الماشية الأسطوري. لقد ترعرعت في الريف الإنكليزي، وفي مدرسة داخلية فخمة، لكن هذا لا يعني أنها لم ترث القدرة على مواجهة مصاعب الحياة. إنها فعلاً كما قالت له: تتمتع بالقوة وتشعر بالإثارة لا بالتوتر. أرادت أن تتعلم طريقة العيش هذه.. أرادت أن تتعلم كل شيء عن حياة غرانت كاميرون.

بحثا كثيراً إلى أن حان موعد عودتهما. وحين حطت الطوافة كان برود ينتظرهما في العتمة التي ستتحول بعد لحظات إلى ظلام حالك.

سأل برود: «هل حالفكما الحظ؟».

قفز غرانت على العشب، ثم التفت ليلتقط فرانسيسكا من خصرها وينزلها من الطوافة كما لو كانت خفيفة كالريش..

- إذا لم يظهر كورلي في مزرعة بوينرونغ في الصباح الباكر.. سنبحث من جديد.. هل اتصل بوب؟

هز برود رأسه: «لا شيء.. لا أخبار.. ستبقى هنا الليلة.. من الأفضل أن تكون هنا على أي حال.. نحن أقرب إلى بوينرونغ في حال اضطررنا للبحث.. أعتقد أن رجلك يغلي غضباً الآن ويتأوه لتعطّل الراديو».

- لن يدهشني هذا.. لكن فرانسيسكا هي التي أدهشتني حقاً.

استدار برود ليبتسم لابنة عمه الإنكليزية: «وكيف هذا؟».

قالت فرانسيسكا: «أعتقد أنه ظنني سأذعر عندما واجهتنا الرياح.

وضربت ذراع غرانت مؤنبة.

فرد بابتسامة ممازحة خفيفة: «ما كنت سألومك لو ذعرت، لطالما قلت إنك أكثر من مجرد وجه جميل».

قال برود بمحبة: «يلزم الكثير لإغاظة «فران»، فلطالما عرفنا أن هذه القطعة الانكليزية النفيسة تتمتع بالكثير من الجرأة».

قدمت له ريبيكا مبتسمة غرفة ضيوف تطل على جهة المنزل الخلفية.. وكان النهر المتعرج المجاور، يلتف حول المنزل، فيبدو كخط فضي عندما يعكس القمر ضوءه على الماء. ودخل برود بعد دقائق، حاملاً كومة من الملابس تفوح منها رائحة الصابون، احضرها من خزانة ملابسه.

قال وهو يضعها بترتيب على السرير: «هاك.. ستناسبك هذه».

وكان الرجلان متناسبي الطول، ونحيلي الجسم ويعود ذلك لكثرة

نشاطهما.

صرف غرانت نظره عن مشهد الليل ليبتسم لأفضل صديق لأخيه، قائلاً: «شكراً جزيلاً».

يصغر غرانت راف وبرود ببضع سنوات ويسعى دائماً للحاق بهما، محاولاً تقليد إنجازاتهما، في مجالي العلم والرياضة. لم يكن أداؤه سيئاً بوجه عام.

ابتسمت عينا برود وقال: «لا شكر على واجب. لقد أنقذتني مرات عدة.. سآخذ دوشاً ساخناً طويلاً.. وأعتقد أنك ترغب بالاستحمام أنت أيضاً، فقد كان اليوم متعباً جداً».

تأهب ليغادر الغرفة، لكنه توقف قليلاً عند الباب:

- بالمناسبة.. لا أعتقد أنني شكرتك بما يكفي لقيامك بمثل ذلك العمل العظيم. فأنت لست بارعاً في قيادة الطوافات فحسب أنما أنت مربي ماشية جيد كذلك، ممّا يجعل منك شخصاً غير عادي.

ضحك غرانت: «شكراً يا صديقي.. إن هدفي هو تقديم أفضل الخدمات.. ولن يكون هذا بخس الثمن كما ستكتشف.. متى سننطلق في الصباح، في حال ارسل كورلي رسالة يطمئننا فيها عن حاله؟».

قطب برود جبينه وأجاب بشيء من الغموض: «ليس باكراً مثل اليوم، هذا مؤكد.. فأمام الرجال أمور وأعمال يقومون بها. سننتظر لنرى ماذا سيحمل لنا الصباح.. أعرف أن منطق هذه الأدغال يقول لنا إن كورلي قد حط بسلام، لكنني أرغب في البقاء إلى أن نتأكد».

تقبّل غرانت دعم صديقه قائلاً: «أقدر لك هذا يا برود، إن البحث في منطقة شاسعة كهذه أمر مستحيل وسيلزمنا طائرة لانقاذه، إذا ما وقع في مشكلة ما».

ردد برود كلمات غرانت: «هذا لا يعني أن حصول مشكلة في

الراديو أمر غريب. والآن، ما رأيك باللحم المشوي؟ أشعر برغبة في تناول الطعام خارج المنزل الليلة، وهذا يعطيني الفرصة لإظهار براعتي. فأنا أطهو لحماً لذيذاً، يمكننا أن نشوي بعض البطاطس في حين تحضّر الفتاتان السلطة. ماذا يريد الرجل أكثر من هذا؟».

ابتسم غرانت ابتسامة عريضة: «افعل ما شئت، فأنا جائع بما يكفي لألتهم أفضل قطعة ستيك أجدها في كيمبارا».

أكد برود له: «ولسوف تحصل عليها».

كان الدوش الساخن الطويل أفضل ما يمكن الحصول عليه بعد نهار حافل بالحرّ والضجيج. وطنّ في أذنيه خوار الماشية وهي تجتمع رغماً عنها لمغادرة المكان لكنه خطط للخروج من نطاق العمل هذا.. أراد أن يركز على توسيع أعماله.. وسيمضي قدماً في بناء الأسطول الجوي والفريق المرافق له.. لكن تفكيره عاد ينصبّ بحزم على نوعية الخدمات التي سيقدمها.

بما أن أمامه متسعاً من الوقت وبما أنه بصحبة أصدقاء طيبين، دخل يستحمّ، واستخدم بعض «الشامبو» الذي وجده في الخزانة تحت المغسلة.. تعرف كينروز كيف تعتني بضيوفها.. إذ وجد كل ما يحتاجه الضيف ويشعره بالراحة.. صابون فخم، «جيل» للحمام، «جيل» للدوش، فراشي أسنان، معجون أسنان، مجفف للشعر، آلة حلاقة كهربائية.. والكثير من المناشف الكبيرة.. أمر رائع!

خرج من تحت الدوش، ليلف نفسه بإحدى المناشف، وشعر بإرهاق اليوم يتبدّد. شعره يحتاج إلى قصّ، كالعادة.. لم يكن من السهل العثور على الحلاّقين في الصحراء. هز رأسه المبلل ورأى أنه يستحسن أن يستعمل مجفف الشعر إذا اراد أن يبدو أنيقاً.

وهذا ما فعله. كان يعي جيداً أن فرانسيسكا وقوتها الجاذبة الرائعة

تسحرانه، ولو أنه يعرف أن هذا غير مجد.. ولطالما عاشت عائلتا كاميرون وكينروز كأسياد للصحراء.. لكن عالمهما أبعد من «المدنية» بكثير كما تعرف جيداً اللايدي فرانسيسكا دوليل.. ولا عجب في أن يكون نداء هذه الأماكن البعيدة قد وصلها.. فعلى أي حال، أمها أوسترالية وقد ولدت في هذا المنزل بالذات. لكن فرانسيسكا الآن في إجازة، تستمتع بالمناظر الوردية، ومن المستحيل أن تدرك مدى العزلة اليومية، والمعارك الرهيبة التي تخاض هنا ضد الجفاف، والطوفان والحر، والحوادث والموت المأساوي.. فقد يتمكن الرجال من تحمل الوحدة، والكفاح والإحباط، وضغط العمل الساحق. لكنه كان يعرف في قرارة قلبه أن وردة إنكليزية مثل فرانسيسكا لن تحتمل الحياة هنا، مهما ادّعت أنها متكيفة معها. وببساطة، لا خبرة لها بهذه الأدغال المحفوفة بالمخاطر.

رمى غرانت مجفف الشعر من يده، وهو يفكر في أنه ما كان يجب أن يستخدمه.. فقد جعل شعره يبدو جافاً غليظاً.. وحوّل اهتمامه إلى الثياب، فانتزع حزام بنطلونه ليمرره عبر البنطلون القطني.. كان القياس مناسباً تماماً. ولو أنه متأكد من سلامة كورلي، لاستطاع التطلّع إلى أمسية ممتعة.

كان منزله موحشاً في غياب راف.. وكان ينتظر رسالة منهما أو ربما مكالمة هاتفية أخرى. لقد أحبّت آلي كثيراً الاقامة في نيويورك، والإثارة التي أحست بها وهي تسير على الأرصفة، وتمتع ناظريها بالأضواء التي تميّز نيويورك عن سواها من مدن العالم.. وأضافت: «لقد اشترينا لك بعض الهدايا الرائعة. إنها مميزة حقاً».

هذه هي آلي.. وهي تنعم بالمال الكثير. لم يتمكن آل كاميرون يوماً من مواكبة آل كينروز في مسألة الثراء الفاحش، مع أن «أوبال»

كانت رائدة في مجال الصناعة، وراف مصمم على التوسع، وغرانت مصمم على جعل علامته التجارية تحتل سوق الطيران.

كبرياء الأسود! نعم لكنه ذاق طعم المأساة تماماً كبرود وآلي.. على الأقل وجد برود الحب الحقيقي، وهذا الامر أهم مما يظنه الناس. أما بالنسبة إلى راف وآلي فهما وجهان لعملة واحدة.. حاول اقناع نفسه بأن الوقوع في حب فرنسيسكا سيقوده إلى الجنون، ولن يتمكن أبداً من ايجاد طريق العودة.

كانت فرانسيسكا تجتاز الردهة الأمامية حين نزل غرانت السلم.. فنظرت إليه وشعرت بالدم يتدفق الى وجهها. بدا رائعاً، بقسماته القوية وبعينيه اللوزيتين اللامعتين وشعره الكثيف، المبلّل والمموّج الذي قد تدفع النساء ثروة لتسريحه بهذا الشكل. وذهلت بالمشاعر التي تجتاحها، مشاعر امرأة تنظر إلى رجل حياتها المثالي.

ـ مرحباً!

كان صوته المنخفض يزيد من تأجيج مشاعرها حتى أنها اضطرت للتكلم بشيء من المرح كيلا يتمكن من قراءة ما يجول في فكرها.

ـ تبدو وسيماً.

ابتسم قائلاً: «الفضل لبرود.. فقد زودني ببعض الثياب».

ردت بتوازن لطيف بين الإعجاب والمزاح: «إنها تناسبك».

نظر إليها بسخرية لطيفة: «في الواقع، أنت تبدين جميلة جداً».

كانت ترتدي تنورة طويلة زرقاء اللون مع بلوزة مناسبة بشرائط رفيعة عند الكتفين.. وتنتعل حذاء أزرق في قدميها. وقد التف شعرها الأحمر خصلاً جميلة. رأى الاحمرار على بشرتها العاجية وعرف أن السبب هو دنوه منها.

كيف حدث هذا؟ هذا التوق لامرأة يجعل الرجل يصاب بالدوار؟

كان يغازلها في أفكاره ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، وذلك منذ مدة طويلة. ويظن أن على هذه العلاقة أن تموت وهو مصدوم لعدم تعقله.. لكن، ما دخل التعقل بالجاذب الجسدي؟ أحس أنه مدفوع نحوها.. ولم يستطع أن يقاوم فتوجّه إليها مباشرة، ليفاجئها ويفاجيء نفسه برقصة تانغو تذكرهما كيف رقصا في زفاف برود ولاحقاً في زفاف راف.

شعرت فرنسيسكا أنه مجبول بإيقاع موسيقي وأن احساساً غريباً يذيب أطرافها، ويجعل كل أحاسيسها تتفتح كالزهور.

تمتم في أذنها: «أنا في صحبة رائعة الآن».

ـ وأنا كذلك.

خرجت الكلمات منها متسللة بنعومة شديدة. لم تتخذ قراراً بالوقوع في حبه، لكن تأثيره عليها مؤكد لدرجة أنها تكاد لا تستطيع التفكير بنهاية عطلتها.

جاءت ريبيكا تبحث عنهما، فصفّقت لروعة رقصهما، وصاحت:

ـ أنتما طبيعيان.. كلاكما.. لم أفكر بهذا من قبل، لكن هذه حلبة رقص رائعة.

نظرت حولها في الردهة الواسعة.

فسألتها فرانسيسكا: «ولما أنت بحاجة لها ولديك قاعة الرقص القديمة؟».

كبتت أنفاسها لأن غرانت راح يديرها ويديرها قبل أن يتوقفا.

ابتسمت ريبيكا، فهي لا تزال العروس المبتهجة: «أعني لبرود ولي.. تعالا وانضما إلينا لتناول العصير.. لقد ثلجت مزيجاً لذيذاً منه.. المكان جميل على الشرفة الخلفية، والجو مفعم برائحة الزهور.. كم أحبها! والنجوم تتلألأ في مداراتها».

ثم تقدمت إلى الأمام، تشبك ذراعها بسعادة بذراع فرانسيسكا، وشعرها الأسود الطويل اللماع منسدل على كتفيها، كما يحبه زوجها تماماً. . وتنورتها الصيفية البيضاء تلوح في النسيم المتسرّب من الباب المفتوح.

وجدوا برود مرتدياً مريول الطهو، والموقد الكبير مشتعل، والبطاطس تحمرّ فوق النار، بينما الكباب الذي حضرته ريبيكا للشوي وسلطة الجوز والفطر التي أعدتها فرانسيسكا تنتظر.

أمّا غرانت فأوكلت إليه مهمة تحضير العصير، وصبه في كؤوس كانت موضوعة على الطاولة. بينما مررت فرانسيسكا التوست الهش المزين بسمك السلمون المدخن الذي حضرته قبل نصف ساعة. كان خفيفاً وطيب المذاق، وبدأت الاحاديث تتوالى، فهم اشخاص مترابطون يستمتعون حقاً بصحبة بعضهم بعضاً. . وكان «الستيك» من اللحم الممتاز في كيمبارا، وقد وضع لينضج فوق الفحم المشتعل. وقررت ريبيكا أن تقدم بعض المرطبات، فذهبت إلى المطبخ لتحضرها. في هذه الاثناء، سار غرانت وفرانسيسكا إلى حافة الشرفة ليشاهدا القمر ينعكس فوق سطح الجدول الصافي كالزجاج.

تنهدت فرانسيسكا ورفعت رأسها نحو السماء اللامعة:

ـ إنها ليلة رائعة. . نجم الجنوب دائماً فوق قمة المنزل. . من السهل معرفة مكانه.

هز غرانت رأسه: «لن يراه راف وآلي في الولايات المتحدة، فهذا النجم يتحرك تدريجياً نحو الجنوب في السماء».

أدارت رأسها تنظر إليه، وأحست بالإثارة لطول قامته: «هل هذا صحيح؟».

انحنى ساخراً: «سيدتي اللايدي هذا نتيجة لحركة الأرض

الدائرية. . في العالم القديم، عرف البابليون واليونانيون النجم الجنوبي. . وظنوه جزءاً من كوكب السنطور. . أترين أبعد نجم لجهة الجنوب؟».

وأشار بيده إليه فسألته:

ـ ذاك الأكثر لمعاناً؟

هز رأسه: «إنه نجم مهم، ويدل دائماً على القطب الجنوبي. وقد حاك سكان البلاد الأصليون أساطير رائعة عن «درب التبانة» والنجوم. . سأخبرك بعضها يوماً ما. . ربما في ليال نكون فيها في مخيم في العراء».

ـ هل أنت جاد؟

ساد صمت قصير، وبدا صوته ساخراً: «يمكننا أن نتدبر الأمر. هل تعتقدين أنها فكرة جيدة، أن نخيم معاً تحت النجوم؟».

تنهدت فرانسيسكا تنهيدة ملؤها الاثارة: «أعتقد أن هذا سيكون رائعاً».

ـ وماذا لو بدأت الذئاب بالعويل؟

ـ إنها أصوات حزينة ولن أقول إنها ليست مرعبة. . أعرف. .

وارتجفت قليلاً وهي تتذكر، ثم أضافت: «لكنك ستكون معي لتحميني».

ـ ومن سيحميني أنا؟

ووضع فجأة أصبعه تحت ذقنها يرفع وجهها إليه. . فسارعت إلى صلب الموضوع:

ـ وهل هناك ما يقلقك؟

رد ببطء: «أظن هذا. . أجل. أنت بعيدة المنال فرانسيسكا».

مازحته بلطف: «وظننتك رجلاً هدفه النجوم؟».

ـ الطائرات أكثر أماناً من النساء.. فهي لا تشغل فكر الرجل.

قالت بصوت منخفض، لكن عاطفي بشكل فريد: «إذن، هذا يجعل مني.. خطراً كبيراً؟ انا المسكينة الصغيرة؟».

فاجأ نفسه بالاعتراف: «ما عدا في عالم أحلامي السري».

وكان هذا اعترافاً خطيراً، جعل جسم فرانسيسكا يرتجف كالوتر المشدود.. وسألت بشيء من الإحباط:

ـ لماذا تكشف لي هذا القدر من نفسك غرانت؟

ـ لأننا وبطرق عديدة، متناسبان. وأعتقد أننا نعرف هذا منذ مدة.

لم يكن هناك سبيل للإنكار، فسألته: «حين كنا مراهقين؟ والآن يجب أن نفترض قيام علاقة مختلفة؟».

زاد عمق صوته، وأصبح مشاكساً: «ليس أن نقيم علاقة.. فأنت خلقت للعظمة.. أنت ابنة «ايرل» والسفر إلى هذه المناطق النائية، هو مجرد هروب بالنسبة لك، وبطرق عديدة. لعله هروب من الواقع، محاولة لتجنب الكثير من الضغط بسبب مركزك. وأظن أن والدك يرغب بأن تتزوجي رجلاً من مقامك، شخص من الأرستقراطية الإنكليزية.. على الأقل، سليل إحدى الأسر المعروفة.

كان هذا صحيحاً تماماً، فوالدها يعلق عليها آمالاً كثيرة حتى أنه يفكّر في شخصين مناسبين للزواج بها. حاولت فرانسيسكا إبعاد الموضوع قائلةً:

ـ أنا ابنة «في» كذلك، وهذا يجعلني نصف أوسترالية. و«في» لا تريد لي سوى السعادة.

ـ وهذا يعني أنني على صواب.. وأن والدك يتوقع لك حياة مميزة.. ولن يرغب في أن يخسرك.

هزت فرانسيسكا رأسها، تكاد تتوسل: «لن يخسرني أبي أبداً. فأنا

أحبه.. لكن، له حياته الخاصة كما تعلم».

رد بجرأة: «ولكن لا أحفاد له، وأنتِ يجب أن تعطيه صبياً يكون وريثه المستقبلي.. وهذا واقع لا مفر منه».

انفجرت فرانسيسكا:

ـ أوه.. دعنا لا نفترض كل هذا يا غرانت.

كل ما تريده هو أن يكونا معاً بدون أي خلاف بينهما. لكن غرانت لديه أفكار مختلفة تجعله يرى إلى أين قد يؤدي بهما هذا الوضع.

ـ أنا مضطر لهذا.. تعرفين مثلي تماماً أننا نتورط معاً بشكل متزايد، وبماذا أضحّي أنا؟ يمكن أن أقع في حبك، ثم تعودين إلى بلادك، إلى والدك، وإلى عالمك، وتتركيني أتدمر هنا.

لم تتخيل أنه قد يصبح يوماً ضحية أي امرأة. فهو رجل مستقل جداً.

ـ أعتقد أنك تملك ما يلزم لمقاومتي.

أحنى رأسه يضمها إليه: «أنت محقة.. لقد رأيت مثل هذه النماذج من قبل».

تمسكت به قائلة:

ـ إذن، ما هو الحل؟

ـ لن يسمح أي منا لنفسه بأن ينجرف.

ـ ألا يتناقض هذا مع تصرفك إذن.. لماذا تضمني؟

ضحك بصوت خافت جذاب: «هذا هو الجحيم فرانسيسكا.. أنني أوفّق بين حاجتي إليك وحاجتي إلى التعقل».

تحدثه بشيء من السخرية: «إذن.. لن يكون هناك المزيد من العناق؟».

نظر إلى عينيها الملتهبتين. إنه يعي تماماً المشاعر المتأججة

داخله. بدت له جميلة جداً، كقطعة بورسلان، امرأة تُحب، وتحمى من أي ضرر.. وسأل ساخراً:

- وهل أستطيع فعل شيء وأنا في حرب مستمرة؟ أنت جميلة جداً.. ألست كذلك؟ ولقد ظهرت في طريقي كأميرة آتية من قصة خرافية.. أنا أعرف العشرات من النساء المرغوبات، والمتوفرات.. أولست أكبر مغفل في العالم لأنني اخترتك أنت؟ امرأة شابة عاشت حياة ساحرة؟ أعرف جيداً أن والدك سيصدم صدمة كبيرة إذا عرف أنك تخرجين مع رجل قاسٍ من هذه المناطق النائية المليئة بالأدغال.

لم يكن ذلك ينطبق عليه اطلاقاً.

- أنت رجل صارم غرانت.. لكنك لم تكن يوماً قاسياً. صحيح أنك أكثر صرامة من راف، لكنه شقيقك وأحد ألطف الرجال الذين قابلتهم.

هز رأسه بتسلية ساخرة: «تعنين أنه لا يتمتع بعدوانيتي.. هذه نعمة إلهية وهبها إياه الله... مولودة معه فرانسيسكا. ورثها من أبينا... وأنا لست عطوفاً مثله».

- حسن جداً.. لا تشعر بالسوء هكذا، أنت تعجبني.. بمزاجك الحاد وكل شيء. تعجبني حين تروقك فكرة وتنطلق وراءها.. يعجبني بعد نظرك.. تعجبني طريقة وضعك للخطط الكبيرة. بل أنني معجبة بحس المنافسة القوي لديك. أما ما لا يعجبني، فهو نظرتك إلي، وكأنني تهديد لك.

لاحظ الألم في عينيها، لكنه مضطر لأن يتكلم: «لأنك فعلاً تهديد لي فرانسيسكا، تهديد حقيقي.. ولنا معاً».

- هذا أمر فظيع.

وأشاحت بوجهها فجأة نحو الحديقة المغمورة بنور القمر، وتمتم

باكتئاب: «أعرف.. لكن هذا أمر غير منطقي».

تمتعت فرانسيسكا بالعشاء، وبالوجبة اللذيذة، وشاركت في الحديث بحرارة، وعرضت فيما بعد أن تعدّ القهوة.

حرك غرانت كرسيه إلى الوراء، وقال متهوراً:

- سأساعدك.

وأمل أن تدوم سعادة هذه الأمسية.. وكان برود وريبيكا قد جلسا قرب بعضهما وأمسكا بيد بعضهما.. لذا لن يفتقدا الشابين قبل فترة.

في المطبخ الضخم، المجهّز لإطعام جيش بأسره، كلفته فرانسيسكا بطحن البن، الذي تصاعدت منه رائحة لذيذة جداً. وكانت فرانسيسكا مشغولة بجمع الفناجين والأطباق لتضع فيها الحلوى بالشوكولا التي سبق قطعتها. ولاحظ غرانت أنها تعمل ببراعة.. إنها منظمة جداً في عملها.

قال: «أنت تعملين بشكل جيد جداً».

انعكس الضوء على شعرها فحوّله إلى ألسنة لهيب. قالت: «وماذا يفترض بهذا أن يعني؟».

ابتسم: «وهل طهوت وجبة طعام يوماً؟».

- لقد حضرت السلطة.

- وكانت رائعة.. لكنني لا أظنك احتجت يوماً لدخول المطبخ وتحضير العشاء.

بالكاد تتذكر أنه سُمح لها بدخول المطبخ، ما عدا في أعياد الميلاد لتحرك خليط الحلوى، وقالت:

- ليس في «أورموند» لا. كان هناك دائماً مدبرة المنزل السيدة لينكولن.. وكانت متشددة جداً..

كان لديها خدم مثل والد برود. . لكن برود وريبيكا قررا أن يعيشا لوحدهما، على الأقل لفترة قصيرة. .

ـ انتقلت مرة إلى لندن للعمل، وتمكنت من تحضير كل طعامي بنفسي. . ولم يكن هذا بالأمر الصعب. . حقاً.

صب الماء المغلي في الإبريق الخزفي: «عندما لم تكوني خارج المنزل؟ لا بد أنك كنت تتلقين الكثير والكثير من الدعوات؟».

نظرت إليه نظرة لامعة: «كان لدي حياة اجتماعية ناشطة. . لكنها لم تكن هاجسي الوحيد».

ـ دون علاقة حب؟

وأدرك أنه لا يطيق فكرة وجودها مع رجل آخر.

ـ ارتباط رومانسي أو اثنين، مثلك.

ـ لم يكن أي منهما جدياً؟

ـ لم ألتقِ بعد بالرجل المناسب.

ـ في هذه الحال أودّ أن اسألك لماذا أنت مهتمة بي؟

سؤاله المباشر خطف أنفاسها، فقالت:

ـ أنا أتبع غريزتي فقط. . أشعر بجاذب عاطفي وجسدي. . وأنت جذاب جداً.

انحنى لها ساخراً، وبأناقة مدهشة: «شكراً لك فرانسيسكا. . فهذا يجعل قلبي يفتخر».

ـ طالما لا يفتخر رأسك.

ـ إن الاهمية الكبرى هي لرأسي الآن. . لكنني تمتعت بهذه الليلة. . برود وريبيكا رفيقان جيدان، وأنت كذلك.

كان هذا موقفاً مربكاً. . الانتقال من السخرية إلى العواطف. . ربما كاعتراف بأن علاقتهما قوية، ولو أنه سيقاومها دائماً.

ردت فرانسيسكا:

ـ من الجيد أنني فعلت الصواب.

وحاولت أن تكون لهجتها ممازحة لكنها احتارت حين أحست بالدموع تتصاعد إلى عينيها. . وجودها معه جعلها أكثر حساسية، أكثر أنوثة وأكثر تأثراً. . وبالرغم من الهدوء في صوتها أجفل غرانت على الفور، ونظر إليها بسرعة فرأى أنها تكاد تبكي.

وبقلب يخفق بخيبة الأمل والرغبة، مد يده إليها يجذبها إلى ذراعيه:

ـ فرانسيسكا! ما الأمر؟ هل جرحتك؟ أنا متوحش، أنا آسف.

ورأى النبض يخفق على عنقها العاجي تجاوباً مع نبضاته.

ـ أنا أحاول أن أرى ما هو الأفضل لنا معاً. . لا شك في أنك تفهمين هذا؟

كان صوتها همساً أجش: «طبعاً».

ومسحت عينيها بيدها، كفتاة صغيرة. فاشتعلت النيران في عروق غرانت.

وتفجرت فيه موجة حب جارف، ممزوجة بحب الحماية فما كان منه إلاّ أن ضمّها أكثر إلى صدره. وشعر بجسمها الرقيق على صدره. . كان الأمر رهيباً. . لكنه جيد. . لا بل أفضل من جيد. . ساحر اذا صحّ القول.

حاولت أن تتكلم. . لكنه أسكتها. . فهذه السعادة بوجود امرأة بين ذراعيه كانت جديدة بالنسبة إليه. . شيء أبعد من أي تجربة سابقة له. . إنه يريدها، يحتاج إليها، كما يحتاج الإنسان إلى الماء.

كان في عناقه شوق لا يصدق. . لمسة شراسة أثارتها، لأنها عرفت أنها تعني له أكثر مما يجرؤ أن يعترف به. وأمسكت يده بعنقها، يشد

رأسها إلى صدره.. وبدأ شيء عميق، عميق، في داخلها يذوب. وكانت على وشك أن تفقد وعيها من دفق مشاعرها.. فهي لم تعرف من قبل مثل هذا الموقف الحميم.. كانت تعرف أنه قد يتسبب بالكثير من التعاسة.. لكنها إمّا بحاجة كبيرة له، وإمّا حمقاء جداً لكي لا تأبه.

ابتعد أحدهما عن الآخر وبقي كلاهما مرتبكاً للحظات، وكأنهما نزلا من عالم آخر. كان غرانت من جهته يعي تماماً مزاجه، تصرفه، وأفكاره، حول هذه المرأة.. لقد أشعلت النار في دمه، وهذا ما يعقّد علاقتهما كثيراً. كيف يمكن للمرء أن يفكر بهدوء، وتعقّل وهو يتشوّق باستمرار لها؟ كما قد ترى في اندفاعه الزائد شيئاً من العدوانية.. إنها صغيرة، ضعيفة جداً بين ذراعيه. وكان عطرها، ورائحة بشرتها، لا ينفكّان يحركان مشاعره.

من جهة اخرى ، بدت فرانسيسكا مرتجفة، غير قادرة على الكلام، وشاحبة بشكل غير عادي.

قال والندم في صوته: «أنا آسف فرانسيسكا.. لم أقصد أبداً أن أكون خشناً معك، لقد انجرفت، سامحيني. الحقيقة كما قلت أنت، أفتقد للمسة الكياسة».

كان بإمكانها لا بل كان عليها أن تفصح له عن مشاعرها وعن سعادتها عندما اقترب منها، لكن موجة المشاعر كانت كالصاعقة.. فابتعدت عنه ووضعت يداً مرتجفة على شعرها.. ترتّب الخصلات الطويلة الحريرية.

ـ أنت لم تجرحني غرانت.. ويمكن للمظاهر أن تكون مخادعة، فأنا أكثر صلابة مما أبدو عليه.

ضحكته المنخفضة كانت طبيعية: «كان يمكن أن تخدعيني».

وأخذ يراقبها تحاول ترتيب شعرها، وهو يرغب في أن يحرره من رباطاته. كم يحمل الشعر الطويل الجميل من فتنة للرجل.. وراح يتخيل نفسه يمشطه.. يا للسماء! لا بد أنه مجنون.

ـ من الأفضل أن نأخذ القهوة إلى الخارج.. إنها تبرد.

مد يده ليضع الإبريق الخزفي على الصينية، قائلاً:

ـ سأحمله بنفسي.. استرخي أنت.. وأعيدي اللون إلى خديك.

إنها أوامر صعبة بعد أن حوّلها إلى فتاة مرتجفة مقطوعة الأنفاس، كلها حساسية...

* * *

٢ ـ هديتك لي

استيقظت فرانسيسكا بسرعة، وكانت على يقين من أنها استغرقت في النوم حتى قبل أن تنظر إلى الساعة. لقد ضبطت المنبه على الخامسة صباحاً، والساعة الآن السادسة وعشر دقائق.

ـ اللعنة!

هذا أمر مريع.. ارادت أن ترافق غرانت. نهضت من السرير، ونظرت عبر الباب الزجاجي المؤدي إلى الشرفة.. الشمس تشرق في الرابعة والنصف، والسماء الآن زرقاء لامعة، والهواء مثقل برائحة الحرارة. لم تستطع التمتع بسيمفونية الطيور الصباحية.. كانت الأصوات الممتزجة المرتفعة توقظها عادة عند الفجر، فتبقى مستلقية في الفراش تستمتع بالتغريد. لكنها اليوم نامت بعمق، بعد أن أرهقها تشوّش المشاعر داخلها.

خططت للذهاب مع غرانت، ووافق على ذهابها معه، ولو على مضض. قرر غرانت قبل أن يخلد إلى النوم أن ينتظر لساعة علّ رسالة تصله من مزرعة بوينرونغ.. تبدأ المزارع العمل منذ الفجر.. ولعل طياره اتصل أو أن بوينرونغ أبلغت كيمبارا عن وصوله؟ هكذا كانوا يعملون هنا.

غسلت وجهها بسرعة بماء بارد لتستيقظ جيداً ونظفت أسنانها، وارتدت ثياباً كانت قد وضعتها جانباً في الليلة السابقة لتوفير الوقت..

سرّحت شعرها وربطته إلى الخلف وأسرعت نحو الردهة. كانت تقريباً عند أسفل السلم حين دخل برود من الباب الأمامي، وبدت الدهشة على وجهه الوسيم:

ـ فران؟ ظننا أن من الأفضل ألاّ نوقظك.

أصابتها خيبة الأمل ونظرت إليه نظرة ملتهبة: «أتعني أن غرانت غادر من دوني؟».

ـ أعتقد أنه ينوي أن يذهب من دونك.. فهو يظن أنك لن تتحملي الرحلة. فقد اتصلت مزرعة بوينرونغ كما توقعنا، وكورلي لم يصل بعد.. لقد أخّر غرانت موعد الطيران قدر المستطاع.. إنه الآن على المدرج يملأ الخزان بالوقود.

التمع الأمل في عينيها: «إذن، لم يقلع بعد؟».

تنهد برود، وقد بدأ يفكر بأن غرانت محق بعدم اصطحابها معه: «لا».

إنها ابنة عمه الصغيرة من انكلترا.. وهو يحبها كثيراً، لكنها ليست معتادة على مواجهة الخطر. كانت تبدو كالطفلة بوجهها المبرّج وبشعرها المنسدل على كتفيها وخديها الزهريين.

ركضت إليه وأمسكت بذراعه قائلة: «خذني إلى هناك».

قاوم برود قليلاً، ولو أن تعبير وجهه كان متفهماً محباً..

ـ فران.. فكري بهذا. لعل الطيار واجه بعض الأذى، وقد يكون هذا مزعجاً جداً لك.. صدقيني.. أعرف هذا.

نظرت إليه بعينين زرقاوين كالزهرة، وقالت: «لن أفقد شجاعتي.. برود.. أعدك. أريد أن أساعد، لقد تابعت دورة تدريب في الاسعافات الأولية».

تنهد برود ومرر يده في شعره الأسود: «لا أريد أن أثير مخاوفك..

لكن الحوادث هنا ليست كما تحدث لبقية الناس فران.. نحن لا نقرأ عنها في الصحف، أو نراها على شاشة التلفزيون. إنها تحدث لنا، وطوال الوقت.. وقد يحتاج كورلي إلى أكثر من اسعاف اولي. فكري بالأمر.. مهما كنت مستعدة للمساعدة، فأنت لطالما كنت محمية».

ـ معظم الناس هكذا.. لكنني مستعدة لأن أتعلم برود.. فتوقف عن معاملتي كطفلة صغيرة. لقد صادفت أوقاتاً عصيبة أنا أيضاً.. والآن، اصعد إلى السيارة وانطلق.

وركضت إلى الجيب، وهي تكاد ترقص رغبة في الوصول إلى المدرج.. وصاحت من فوق كتفها:

ـ لقد وعدني غرانت بأن يصطحبني معه.. أعرف أن هذا قد لا يكون جيداً، لكنني لن أتراجع.. فأنا نصف كينروز.

فكر برود بشيء من الإعجاب إنها فعلاً كذلك.. وهي معتادة أيضاً على التنقل بين أبوين قلقين عليها باستمرار. قال وهو يدير المحرك:

ـ يبدو لي وكأن لديك شيئاً تثبتينه.. حبي.

ـ أجل.. هذا صحيح.

المذهل في ابني عمها برود وآلي، أنهما على استعداد دائم للإصغاء.

نظر برود إليها باهتمام، وكأنه يشجعها: «لغرانت؟».

ابتسمت له: «ولمن غيره؟».

هز برود رأسه، بتعبير ساخر:

ـ إنه رجل رائع فران.. شخصية مثيرة حقاً. وقد يذهب بعيداً، لكنه عنيد جداً. فإذا صمّم على شيء لن تستطيعي تغيير رأيه.. وبالرغم من أنك أميرة لن تتمكني من جعله كالخاتم في أصبعك الصغير، لذا كوني حذرة.. فلغرانت وجهات نظر قوية جداً.. وهو

يتمتع بالكبرياء والقوة والطاقة.. لكن، أمامه الكثير ليتعلمه مثلنا تماماً.. نحن نعرف أنه منجذب إليك، لكنه قد يجرحك. أنا وريبيكا لا نريد رؤية هذا لأنك تعنين لنا الكثير.

عقدت فرانسيسكا حاجبيها المقوسين: «أعرف وأحبكما لأجل هذا، لكن يجب أن استغلّ فرصي في الحياة يا برود.. وأن أتعلم من كل اخطائي. هذا ما يجب أن يحصل.. صداقتي مع غرانت تقدمت خطوة إلى الأمام.. والكل يعي هذا.. نحن متورطان كثيراً وسرعان ما سيقحمنا هذا في المشاكل».

ـ أتعرفين ماذا يقال.. الحياة ليست سهلة..

ابتعد برود عن المنزل وتابع حديثه قائلاً: «لم يشعر غرانت من قبل بسلطة امرأة.. لقد أقام علاقات عادية، لكنها لم تحرقه. فماذا سيحدث حين تعودين إلى سيدني؟ هل فكرت بهذا؟».

قالت بلهفة، محاولة ابعاد الفكرة: «طبعاً فكرت! ولا أريد لهذا الوقت معك ومع ريبيكا أن ينتهي.. أنا متشوقة لرؤية آلي حين تعود، وراف كذلك، ولو أنني أعلم أن له تحفظات حول صداقتي مع شقيقه الصغير».

اختار برود كلماته بدقة، وهو يعلم أن ما قالته صحيح:

ـ المسؤولية مرتبطة باسم راف. فقد كان بمثابة أب لغرانت حين توفي والداهما.. وسط الصدمة التي تلقاها والحزن العميق الذي عاشه، اصبح غرانت منطوياً على نفسه. لقد طبعت تلك المأساة شخصيته وزرعت الخوف في نفسه، وأظهرت له أشياء عن الخسارة، قدلا ينساها. وقد لا يترك امرأة تقترب منه كثيراً، فحزنه على وفاة أبويه كان كبيراً.. إذ كان مقرّباً جداً من أمه، لأنه الأصغر. كان والداهما رائعين.. فقد أشفقا على آلي وعليّ وعلى حياتنا العائلية المشوشة..

وكأنهما تبنيانا . . إن راف بمثابة أخ لي . . أمّا غرانت فلطالما اعتبرته أخي الاصغر . . ولقد تعلم غرانت باكراً أن الحب والخسارة مرادفان .

حين وصلا إلى المدرج، كان غرانت على وشك الإقلاع . وعندما رآهما قادمين، قفز من الطائرة . . بدت فرانسيسكا كمن ينثر الورد في حفلة عرس . . بشعرها الأحمر المتطاير حول وجهها الجميل . . حاول غرّانت أن يخمد غضباً مفاجئاً . . متسائلاً لما يشعر بمثل هذا الغضب . . إنه لا يريدها أن تتأذى، هذا هو السبب . . لا يريدها أن تتعرض للخطر . باختصار، لا يريدها أن تأتي .

كانت تركض نحوه، وهي تصيح موبّخة :

ـ لم تكن تنوي الإقلاع من دوني بالتأكيد؟

أحنى رأسه بأدب : «يخالجني شعور سيء حول هذا فرانسيسكا . . من الأفضل لو بقيت في المنزل» .

ـ لكنك وعدتني ليلة أمس .

ـ أنت توافقني الرأي برود . . أليس كذلك؟

فكر برود قليلاً، ثم قال : «أعتقد أنها لن تصاب بأذى معك غرانت . . قد ترى شيئاً ليست مستعدة لرؤيته . . ولكن حسب معرفتي بها أستطيع القول إنها راشدة بما يكفي لتتعامل مع ما ترى . ثم قد لا يكون الامر بهذا السوء، مجرد عطل ميكانيكي» .

أحس غرانت بالضغط : «وهذا ما يضعه في موقف صعب وخطر ثم أن الحرّ شديد جداً» .

كلا الرجلين يعرف أن أي رجل ضائع قد يتعرض للجفاف والموت خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، في جو جاف كهذا .

وقال برود : «نحن نصلي غرانت» .

ـ أعرف .

واستدار ليرى فرانسيسكا تربط شعرها إلى الوراء بشال أزرق وكأنها تضع قبعة تمريض . . بدت صغيرة السن . . وكأنها مراهقة . لم تكن تحتاج للتبرّج . . فمها الناعم له لونه الخاص الطبيعي . . ماذا يستطيع أن يفعل بمثل هذه المخلوقة السحرية؟

بعد بضع دقائق، كانا في الجو، متجهين نحو الممر الذي سلكه كورلي . . وأشار غرانت إلى عدة علامات أرضية فارقة . . حلقا على علوٍ منخفض لتستمتع فرانسيسكا بالجمال البدائي لهذه الأرض الأزلية .

حلق فوق مراعٍ قليلة الأشجار ثم لمعت المياه كالفضة امام ناظريهما، وبدت خضراء صغيرة فوق السهول الحمراء الصدئة اللون . كانت الصخور البرتقالية اللون ترتفع من الأرض الصحراوية موشاة بألوان ذهبية محروقة . . بدا المنظر الجوي ساحراً . المنطقة شاسعة جداً وبإمكان فرنسيسكا أن ترى بوضوح أن أي رجل قد يتيه فيها إلى الأبد .

بينما كان غرانت يتحدث إلى بوب كارلتون في مركز أوپال، راحت فرانسيسكا تنظر إلى البعيد نحو حفر الماء التي بدت كالواحات التي تغذي الخضرة في الأرض الجافة . كانت السماء صافية والطقس حار وبدأ القيظ يزعجها .

مر وقت طويل لم يريا خلاله ما يستدعي التحقيق عن كثب . كانت عينا فرانسيسكا تتحركان باستمرار، محاولتين عدم التركيز على الجمال الاستثنائي . . بل على العثور على الطوافة الصفراء . . كانت أسراب هائلة من الطيور الاوسترالية تحلّق بالقرب منهما بين الحين والآخر، فتبرز أشعة الشمس لون أجنحتها الزمردي . وتمكنت فرانسيسكا من رؤية الجمال تجتاز الرمال الحمراء، وعندما نظرت نحو الشرق، رأت أعمدة مستديرة شبيهة بتماثيل آلهة قديمة .

لقد دخلا الآن حدود بوينرونغ، وظهرت أمامهما بحيرات كبيرة

عدة. وبعد مرور خمس عشرة دقيقة، أشار غرانت إلى الأسفل، ثم انطلق بطوافته في ذلك الاتجاه.

رأى كلاهما طوافة الشركة في الوقت ذاته. كانت متوقفة على سطح طيني صغير جففته الشمس جيداً، بحيث أصبح قاسياً كالإسمنت ومقاوماً للماء.. إنما كانت الأزهار تزيّن المكان وعلى مسافة ليست بعيدة نمت أجمل نباتات الصحراء. استطاعت فرانسيسكا أن ترى رجلاً مُلقى تحت السنديان، ووجهه مغطى بحافة قبعته الواسعة. لم يتحرك لصوت الطوافة، ولم يرفع القبعة عن وجهه، ولم يلوّح، بل بقي مستلقياً كجثة هامدة.

يا الله! أحست فرانسيسكا بلحظة رعب حقيقية.. فهي لم ترَ الموت من قبل.

في غضون لحظات ، هبطت الطوافة. واستخدم غرانت الراديو ليخبر بوب كارلتون في أوپال، أنه وجد كورلي.. وأن الطوافة سليمة كما يبدو، وأنه سيخبره بالمزيد لاحقاً. عندما نزلت فرانسيسكا من الطوافة، بقيت في انتظار تعليمات غرانت.

قال يأمرها: «ابقي هنا، وخذي هذه وضعيها على رأسك».

أعطاها قبعته وهو يعرف أنها كبيرة جداً، لكنها لا بدّ أن تفي بالغرض.

ـ لا يجب أن تذهبي إلى أي مكان دون قبعة.. إلى أي مكان.. يا حمراء الشعر!

تقبلت التوبيخ بخضوع، لأنها تعرف أنها تستحقه.. فلو لم تطل النوم، لأحضرت إحدى قبعاتها، ثم أكمل غرانت تحذيره:

ـ افعلي ما أقوله لك، ابقي حيث أنت ريثما أرى ماذا يجري.

كانت الطيور التي أغاظها هبوط الطوافة في منطقتها المسالمة

الهادئة، تحلّق في السماء، وتصيح باحتجاج يصم الآذان.

نظرت فرانسيسكا إلى غرانت وهو يبتعد وقد بدا لها أنه يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه هذا الطيار.. إن اللحظة التي صاح فيها «إنه حي!» ستبقى حية على الدوام في ذاكرتها.. وركضت بدون تفكير نحوهما، على الرغم من اعتراض غرانت.

لم ترَ دماً.. لأنه جف واسودّ لونه بعد أن صبغ قميص الطيار بأكمله.

سألت بذعر: «ما الأمر؟ ماذا حدث؟».

عاد غرانت إلى الطوافة: «لست أدري.. يبدو أن شيئاً ما هاجمه».

وعاد ببندقية تحسّباً لأي طارىء، فلا بد أن القطط البرية كثيرة هنا.. أو لعل الذئاب هاجمته.. لا يظن هذا.. إذن ماذا؟ لم يتعرض لهجوم على يد إنسان آخر، لا سمح الله! ووجد نفسه يقول:

ـ يا للرجل المسكين! مسكين كورلي!

تقدمت فرانسيسكا إلى الرجل الفاقد الوعي، وجثت على ركبتيها.

ـ إنه يحتاج إلى العناية بسرعة.. ما الذي فعل به هذا؟

بحذر شديد، بدأت تفك أزرار قميص الطيار المبللة بالدم. في هذه الاثناء، أخذ يتأوه، ويستعيد وعيه.

قال غرانت متلهفاً: «دعيني ألقي نظرة».

ونظر إلى الرجل بحيرة، ثم أضاف: «لقد حط بالطوافة سالماً. لا بد أنه أحس بشيء من الدوار.. أو ربما أصيب بنوبة قلبية.. لكن هذه الجروح!».

ونظر غرانت عن كثب أكثر بينما كانت فرانسيسكا تعمل بكفاءة على خلع قميصه، وصاح: «يا إلهي! إنها آثار مخالب.. قطط متوحشة!».

سألت فرانسيسكا بارتياب: «وهل يمكن أن تلحق كل هذا الأذى؟».

- يمكنها أن تمزّق الإنسان إرباً إرباً.. العديد من الحيوانات التي نعرفها تلحق اضراراً جسيمة بالحياة البرية وبالبيئة المحليتين.. كالجمال، والثعالب، والخنازير البرية، والأرانب، وغيرها. لقد رأيت رجلاً قتلته الخنازير البرية.. والقطط المتوحشة ليست مثل القطط الأليفة.. إنها شرسة، وهي أشبه بالأسود الصغيرة.

أدارت فرانسيسكا رأسها نحوه قليلاً: «لا بد أنها شرسة إذا فعلت كل هذا، لمَ لا تحضر صندوق الاسعافات الأولية من الطوافة.. أنا بأمان هنا.. هذه الجروح تحتاج إلى تطهير. العديد منها يبدو سطحياً، ولو أنه نزف كثيراً.. لكن بعضها عميق».

حذرها غرانت: «قد تعاود النزف مجدداً».

ونظر إليها عن كثب.. في ظل شجر السنديان، خلعت قبعتها التي غطّت عينيها. كانت شاحبة جداً، لكن يديها صلبتان كالصخر.

قالت: «سأكون حذرة جداً، الدم مريع، لكنني لن أفقد وعيي إذا كان هذا ما يقلقك».

في الواقع كانت تحاول أن تسيطر على نفسها.. وقالت بذهول لطيف بعد أن فتح كورلي عينيه:

- مرحباً.. ابقَ مستلقياً بهدوء.. أنت بخير.. بخير.

ودفعته إلى الأرض بلطف شديد، خشية أن تنفتح جروحه مجدداً.

وأخذ وجه كورلي الشاحب يستعيد شيئاً من ألوانه.. وكان صوته أشبه بنقيق ضفدع: «هل مت وصعدت إلى السماء؟».

دنا غرانت لكي يراه كورلي: «مرحباً كورلي.. أنا لا أدفع لك أجرك لتستلقي تحت الأشجار».

هذه المرة حاول كورلي أن يبتسم: «مرحباً أيها الرئيس.. كنت أتساءل متى ستأتي؟».

قال غرانت بلهفة: «لا تحاول الكلام كورلي.. لا تجهد نفسك».

انزعج غرانت لرؤية كورلي في هذه الحال الفظيعة. وقرر احضار الطبيب على الفور.. أو نقل كورلي إلى بوينرونغ التي لها مدرجها الخاص.

وتأوه كورلي: «يا للقطط اللعينة، هل تصدق، قطط متوحشة لعينة.. أنذال صغيرة متوحشة.. لقد هجمت عليّ مجموعة كبيرة منها من حيث لا أدري وقد أصبت بدوار ككلب مريض.. لم يحدث لي هذا من قبل. لا بد أنني أخفتها بطريقة أو بأخرى إلا أنني عانيت من نوبة حصى في الكلية وتألمت كثيراً.. الراديو معطل ويحتاج إلى خبير لإصلاحه.. وكان عليّ أن أهبط بالطائرة، قبل أن يغمى عليّ.. إنها محنة مررت بها! والجحيم ليس وصفاً كافياً.. والآن أفتح عيني على ملاك له عينان كالسماء وشعر كشروق الشمس».

ابتسمت فرانسيسكا، وهي تعرف أن الكلام يرهقه: «لا تتكلم كورلي.. لقد مررت بتجربة سيئة جداً.. سأحاول ألاّ أؤلمك، لكن هذه الخدوش تحتاج إلى العناية».

ابتسم كورلي ابتسامة شبح: «سأحب أي شيء تفعلينه بي!».

فكر غرانت وهو يعود إلى الطوافة، أن فرانسيسكا قد تكون فعلاً مخلوقاً سماوياً، اذ يمكن الاعتماد عليها، وهي قادرة على الاحتفاظ بهدوئها في الحالات الطارئة، وعليه أن يعترف بأنه تأثر بكفاءتها الهادئة.

وفي اليوم التالي للحادث كان كورلي ينام بهدوء في المستشفى، وهو يتذمر من استبدال «الملاك» الذي عالج جسمه الممزق.

في الأسبوع التالي عاد دايفد وفي ويستبوري محمّلين بالهدايا. بديا مرتاحين جداً وعاشقين أكثر بعد أن أمضيا أسبوعين على جزيرة في «غرايت باريرريف». وكان كلاهما قد اكتسب اللون البرونزي الذهبي، وراحت «في» تقول للجميع إنها ليست خائفة من أشعة الشمس، فهي ضرورية جداً لها.. وبالطبع كانت بشرة «في» سمراء، ندية جداً.

نظرت بقلق إلى فرانسيسكا: «أنا لست مثلك حبيبتي.. يجب أن تعتني بهذا الشعر الأحمر.. فسوف تذبلين إذا عشت هنا».

حسن جداً، شكراً لك. شكراً لأنك أكدت أسوأ مخاوف غرانت.

اجتمع الجميع على العشاء في غرفة الطعام في كيمبارا.. جلس برود على رأس الطاولة اللماعة المصنوعة من خشب الماهوغوني.. وجلست ريبيكا في مواجهته، مرتدية فستاناً حريرياً أزرق اللون وكانت «في» إلى جانب دايفد على يمين برود، فاتنة كالعادة في ثوب من جلد النمر، مع ياقة واسعة. جلست فرانسيسكا بمواجهتهما وقد ارتدت فستان يشبه فستان ريبيكا، لونه أزرق قاتم كسواد الليل، وجلس إلى جانبها غرانت.. بدا لون بشرتهما مذهلاً تحت نور الثريا، فبشرة فرانسيسكا خوخية اللون، وخصلات شعرها تلمع كالجواهر، أما بشرة غرانت فبرونزية وشعره بني.

أحس برود بتوتر فرانسيسكا، وأدرك هواجس غرانت.. فقرر أن يتدخل:

ـ «في» تمازحك يا فران تريدك فقط أن تعتني بنفسك.

والتفت يحيي زوجته الجميلة بإعجاب قائلاً: «بشرة ريبيكا رائعة».

مدت يدها تربت على يده: «بالطبع بشرتها رائعة حبيبي. لكن هذه البشرة سميكة وعاجية مثل زهرة المانوليا، بينما بشرة ابنتي الحبيبة،

رقيقة مثل قشرة البيض».

صاحت فرانسيسكا وقد ازدادت احمراراً بسبب انزعاجها: «وهل يعني هذا أنها لا تستطيع الانتظار لتتشقق؟ على أي حال، قد تكون قشرة البيض رقيقة لكنها قوية».

تدخلت ريبيكا بلطف: «أوافق برود الرأي، كل ما تحتاجه فرانسيسكا هو كريم واقٍ من الشمس وقبعة واسعة الأطراف، وعندئذ لا أظن أن فران ستعيش هنا فحسب بل ستزداد نشاطاً أيضاً».

رحبت فرانسيسكا بهذه الفكرة.

أنهت «في» كوب العصير بسرعة مذهلة:

ـ بيكي حبيبتي.. لا تعطي فرانسيسكا أي أفكار، فجيمي ويدنغتون موعود بالزواج بها. إنه النبيل جايمس ويدنغتون.. والده «بيريغرن» هو أقرب أصدقاء أسرة دوليل، وقد أصيب جيمي بالاحباط حين تركت فرانسيسكا عملها لتأتي إلى هنا، وهو ينتظر عودتها، ووالده كذلك. صدقيني، أعرف أن ابنتي تحب الإقامة هنا، لكن انكلترا هي عالمها الحقيقي.

حاولت فرانسيسكا أن تبتسم: «من المؤسف أن أحداً لم يخبرني بكل هذا».

تمنت للمرة الألف ألاّ تتفوه أمها بهذا القدر من المعلومات.. لكن لا أحد يستطيع إسكات «في».. فلديها عادة رهيبة في إفشاء الاسرار.

أدار غرانت رأسه ونظر إلى فرانسيسكا مباشرة، قائلاً: «لم أكن أعلم أنها تركت حبيباً وراءها. جيمي ويدنغتون، النبيل جايمس، يبدو هذا مناسباً تماماً».

ربت برود على يد عمته المليئة بالخواتم النفيسة: «هذا خرق للسرية «في». دعينا الآن نستمع إلى وجهة نظر فران».

أوه.. شكراً لك برود، وغاصت فرانسيسكا مباشرة في التفسير.

ـ أنا أفكر بجيمي كصديق لي، لقد عرفته طوال حياتي، وأحبه كصديق لأنه شخص محبوب فعلاً.. إنه محترم ولطيف وذكي جداً.

قاطعها غرانت بنبرة لاذعة: «باختصار، شخص يجب أن تتزوجيه».

أجابت فرانسيسكا بالنظرة القاسية نفسها: «غير أنني لا أحبه، ولا أرى فيه حبيباً لي.. لقد نسيت أن أذكر هذا».

قالت «في»، وهي الخبيرة في العلاقات الغرامية الرائعة:

ـ صدقيني حبيبتي.. الإعجاب أفضل بكثير من الحب. أنتما فقط بحاجة لأشياء مشتركة تجمع بينكما، أصدقاء مشتركون، أذواق مشتركة، أصل مشترك... الحب جميل ولكن إذا لم ينظر الرجل والمرأة بواقعية إلى الحياة سرعان ما تسير الامور نحو الفشل. والدك مثلاً كان مجنوناً بحبي، لكن ما كان يجب أن يتزوجني.

ضحك برود ضحكة قصيرة: «لا أستطيع تصور سبب زواجه بك، من الواضح أن مقاومتك كانت صعبة.. هذا عدا عن السيطرة».

ردت «في»: «حسن جداً.. كما يقال، بدت لي فكرة جيدة يومها.. وأنا أريد أن تكون ابنتي سعيدة.. ولا أريدها أن ترتكب غلطة شنيعة مثلي. على المرء أن يتقدم إلى الزواج بطريقة هادئة متعقلة».

قالت فرانسيسكا وقد فقدت قدرتها المعتادة على التحمل: «ولهذا فعلت العكس».

انفجر دايڤد ضاحكاً بصوت مرتفع، وقال لفرانسيسكا: «غالباً ما تقول «في» أشياء لا تعنيها، فالوقوع في الحب أسمى إحساس في الوجود. فهو يجعل المرء يحيا من جديد، يجعله مكتملاً. وهذا ما يوصلني إلى ما سأعلنه هذا المساء».

قرع دايڤد كأس العصير بملعقة ونظر حوله: ««في» وأنا لدينا ما نقوله لكم.. وأرجو أن تكونوا سعداء به مثلنا، لقد قررنا أن نتزوج».

كان برود أول من أجاب: «ولماذا لا يدهشني هذا؟».

وقف الجميع فوراً، ودارت فرانسيسكا حول الطاولة لتقبل أمها.. لحقت بها ريبيكا بينما كانت تصافح الرجال.

ـ نهنئكما!

احمّر خدّا «في» الذهبيين احمراراً شديداً:

ـ كلانا سعيد، الحياة رائعة بوجود دايڤد.. وبالطبع هو الرجل الذي كان يجب أن أتزوجه.

نظر برود إلى دايڤد ابتسم ابتسامة ساخرة، لكنه لم يذكر أن دايڤد كان متزوجاً يومها. ثم نظر إلى زوجته، التي يحبها بجنون.. الزوجة التي تجعله سعيداً بشكل غير عادي.

ـ هذا يدعو إلى الاحتفال.. هل يمكننا أن نعثر على تحلية ما في البراد؟

ابتسمت لعينيه: «إذا كنتم ترغبون بالحلوى فقد دفعني حدسي إلى تحضيرها».

فيما بعد، اختار فرانسيسكا وغرانت أن يتمشيا ليهضما آثار الاحتفال، وتركا «في» تتحدث عن خططها.. كان الجو مفعماً بشتى أنواع الروائح العطرة والسماء السوداء تتلألأ بعدد لا يحصى من النجوم المتأججة كالنار البيضاء. وبدا الجو مثيراً، لكن، شيء من التباعد ساد بينهما.

سأل غرانت، لمجرد خرق الصمت السائد بينهما: «هل سيشكل الزواج عائقاً أمام الدور السينمائي المعروض على «في»؟».

ـ أنا واثقة أنّ «أمي» ودايڤد ناقشا الموضوع. في الواقع، ليس دوراً

كبيراً وتفكر في أن يكون الدور الأخير.

ـ آخر عمل تقوم به قبل اعتزالها.

ـ لديها طاقة كبيرة والكثير لتقدمه. على أي حال، دايفد معتاد على أمي.. لكنها محقة في شيء واحد، أنهما من صنف واحد. لطالما كانت حياة دايفد صخبة. إنه فرد هام من مجموعة ساحرة، من مشاهير المسرح والفنون.. إنه مختلف تماماً عن والدي، فهو يحب عالمه الخاص الهادىء في أورموند، ويحب رفقة بعض الأصدقاء القدماء.. ويكره ترك أملاكه ولو ليوم واحد.

ـ أتوقع أن يكون ذلك المكان جميلاً جداً.

ـ أكثر الأماكن جمالاً على الأرض.

وأحست فرانسيسكا بقلبها يكبر فخراً.

قال غرانت بشيء من عدم التصديق: «لكنك لن ترثيه؟».

اقتطفت فرانسيسكا زهرة وتنشقت عطرها.

ـ لا.

نظر غرانت إلى السماء، وسألها: «يا إلهي! ألا تمانعين هذا التصرف والتحيّز الذكوري؟».

في الواقع، كانت متعلقة جداً بمنزل أسلافها.

ـ ربما.. لكنني كبرت وأنا أعرف أنني لن أرث أورموند، كما تعرف آلي أن كيمبارا ستكون لبرود.

ـ يمكن أن أقول إن هناك فارق كبير.. العمل في إدارة سلسلة من مزارع المواشي عمل متعب، وشاق، يحتاج إلى مرونة ورزانة، والكثير من المسؤولية.. وأنا لن أرغب في أن يقع مثل هذا الحمل على كاهل أي امرأة.. البراري هي عالم الرجل فرانسيسكا، كل ما نحتاج إليه هو حب نسائنا وإخلاصهن.. امّا أنت فستكونين مرتاحة جداً في بيت

أسلافك.

كانت تنتظر أن يقول هذا، فردّت ساخرة: «غير أنه ليس لي».

أولم ترحل لأنها لم تتقرّب أبداً من زوجة أبيها الثانية، ولم تتمكن من منع نفسها من مقارنتها بالجميلة المشرقة «في»؟

قال غرانت: «هذا سيء جداً. لو كنت مكان والدك لغيّرت الأشياء».

ـ أنا مسرورة جداً لأنك لست والدي.

ضحك، ثم بدأ يدندن بصوت خافت رقيق فاجأها.

ـ لا بد أنك كنت طفلة جميلة.. لا بد أنك كنت فتاة جميلة.. حين بدأت في الذهاب إلى المدرسة، أراهن أنك دفعت الصبيان إلى الجنون...

لحن رائع.. ناعم كالعسل. وقد بدا لها جميلاً ومغرياً بشكل كبير.

قالت مبتهجة: «لم أكن أعرف أنك تجيد الغناء».

بانكسار الجليد، ضمها إليه، ولف ذراعه حول خصرها:

ـ بالطبع، أنا أجيد الغناء.. يجب أن تسمعيني وأنا في البرية على ظهر جواد، حين كنت صغيراً كنت أغني للماشية، فأتمكن دائماً من تهدئتها.

ضحكت: «هل أنت جاد؟».

ـ اسألي راف.

وانطلق في أغنية أخرى.

ـ بيتي.. بيتي البعيد..

وصفقت فرانسيسكا بإعجاب: «من الآن وصاعداً، سوف تغني لي».

ـ حقاً؟

شدّها نحوه ولفّ يديه حول خصرها النحيل، وسألها: «حسن جداً.. ماذا عن جيمي هذا؟».

أخفضت رأسها: «إنه اختيار والدي، غرانت.. وليس اختياري».

سألها وكأنه مصمم على أن يعرف: «أنت لا تهربين منهما.. أليس كذلك؟».

ضمها إليه.. والمشاعر تشتعل في أعماقه.

ـ كيف؟

ـ ربما بعدم الرغبة في الالتزام، والدك يودّ أن يزّوجك زيجة مشرّفة، ولا يثق بوالدتك في هذا الخصوص.

اعترفت فرانسيسكا: «إنه لا يثق بها أبداً. لعله أحبها بجنون يوماً، لكن، كل ما أتذكره هو أنه لم يكن يرى فيها سوى اخطائها. ولم يكن دوري كطفلة وسط الطلاق بالامر الممتع. أمّا انفصالي عن أمي فكان كالحرمان من الشمس.. ثم أقامت «في» علاقة مع ممثل وتزوجته فيما بعد، كان وسيماً ولطيفاً جداً.. لكن والدي كرهه، ومنعني من زيارتها أثناء وجود زوجها».

تنهد غرانت بعمق: «حسن جداً.. لم يبقَ معها مدة طويلة!».

كان الجميع على علم بمغامرات «في» خلال تلك السنوات واستطاع غرانت أن يكّون فكرة عن وضع هذه الفتاة الصغيرة الحزينة والوحيدة.

قالت فرانسيسكا ممازحة بعض الشيء: «أستطيع أن أتلو لك قصيدة ملحّنة حول هذا الموضوع.. المشكلة أن «في» عاجزة عن العيش بدون رجل...».

أدارها بلطف ليكملا السير: «الآن لديها دايڤد.. فابتهجي».

ـ وابن عمي العزيز دايڤد، سيبقي أمي منضبطة. قد يبدو سيداً نبيلاً، ويتصرّف كذلك غير أنه صلب كالفولاذ.

ـ لكن وقتها مع والدك لم يذهب سدى.. لقد حصلت عليك، وهذا بحد ذاته هدية عظيمة. على أي حال إنها تحبك كثيراً.

ـ أعرف ذلك.

كان غضب فرانسيسكا وارتباكها من كلام أمها قد تلاشى، وهي المتسامحة بطبعها.

قال: «وستعودين إلى سيدني لحضور حفل إطلاق كتابها».

ـ طبعاً عليّ الذهاب، أرغب جداً بالحضور. وريبيكا ستذهب أيضاً، فهي من كتب سيرة حياتها. ولكن من المؤسف ألاّ تكون آلي هنا.. أودّ فعلاً أن أكون هنا عند عودتها.

غير أن غرانت فأجأها بقوله: «وأنا يجب أن أبتعد!».

بدا القلق واضحاً في صوتها: «وماذا يعني هذا؟».

ضحك بصوت خافت: «فرانسيسكا.. وهل يجب حقاً أن أقولها بصراحة؟ اثنان رفقة، أما ثلاثة «فزحمه»، خاصة عندما يتزوج المرء حديثاً».

وقفت مسمرة تنظر إليه: «لكن منزل العائلة كبير جداً».

امسك ذقنها الرقيق بخفة شديدة: «ما بك حبي؟ ألا يروقك الامر؟ سيرغب راف وآلي في أن يكونا لوحدهما».

فكرت في سرها أن راف وآلي سينزعجان جداً لو غادر المنزل.. وسألت:

ـ ولكن، إلى أين ستذهب؟ لم أفكر يوماً في أنك قد تغادر «أوپال».. فعدا عن أنها ديارك، إنها أيضاً قاعدة خطوط كاميرون الجوية.

ـ يمكن تغيير كل هذا.

ـ أنت جاد إذن؟

ـ بكل تأكيد.

ـ وهل يعلم راف وآلي بخططك؟

ـ ليس بعد.. فهما يؤكدان لي أن أوبال هي بيتي كذلك.

شعرت فرانسيكا أنها عاجزة عن تقبّل ما تسمعه، فهي لا تستطيع أن تبتعد عن الرجل الذي وقعت في حبّه.

ـ وإلى أين ستذهب؟

أمسك غرانت يدها وتابع السير: «إلى مكان أقرب إلى وسط البلاد، ربما إلى (داروين)».

ـ في «التيرانوري»؟

وصدمتها الفكرة.. سيبتعد ألف ميل، وربما أكثر.

هز غرانت رأسه: «بوابة أوستراليا.. أعرف أملاكاً رائعة معروضة للبيع».

نظرت إليه فرانسيسكا بإحباط، وقد كان من السهل قراءة تعابير وجهها تحت ضوء القمر.

ـ لقد خطفت أنفاسي.. سيفتقدك الجميع كثيراً. وأنا بشكل خاص.

للحظة أحس بالجنون لرغبته في أن يضمها إليه ويتنشق رائحتها. لكنه بدلاً من ذلك، وضع يده بيدها ليشعر براحتها وراح يداعبها بحركة دائرية.. ماذا يمنعه من معانقة هذه المرأة الشابة وهو يكاد يجن ليفعل؟ في أمكنة أخرى، وأزمنة أخرى، ومع فتيات أخريات لم يكن يشعر بمثل هذا العذاب.. والرد هو أنه يهتم كثيراً لأمرها.. لكنه لا يستطيع التسرّع، فهي اللايدي فرانسيسكا دوليل.. ابنة الايرل الإنكليزي

والممثلة الشهيرة فيونا كينروز.. ولو كانت أية فتاة أخرى، امرأة شابة من وسطه لأسرع بها إلى مذبح الكنيسة.. لكن لعائلة فرانسيسكا جذور وتقاليد قديمة، ولها مكانتها الرفيعة في المجتمعات الراقية.. حتى «في» أوضحت أن بانتظار فرانسيسكا مستقبل أفضل.

أخيراً تمكن من أن يقول: «لن أبتعد كثيراً، ليس بقدر ما يحلّق الطائر.. أنا لا أهدف إلى الالتزام بالطوافات. لقد ترك لي أبي حصة كبيرة من أوبال، ولو أنني لست الوريث الأول».

فكرت فرانسيسكا: أنت الأول بالنسبة لي. وأدارت وجهها عنه كالعمياء:

ـ لِمَ لا تبني منزلاً خاصاً لك في أراضي أوبال؟ فالأرض شاسعة وتفوق مساحتها الإلفي ميل تقريباً.

ارتفعت معنوياته بشكل كبير.. لماذا لم يفكر بهذا؟

ـ لم يكن لأوبال يوماً سوى منزل عائلي واحد.

نظرت إليه بسرعة، وقد ادركت تبدّل مزاجه.

ـ ابنا كاميرون يحبان بعضهما، ولا يريدان أن يفترقا حتى ولو لم يرغبا في المشاركة في المنزل ذاته؟ اعتقد أن بناء منزل آخر هو الحل الأفضل، وسأقول لك أين يمكن أن تبنيه بالضبط.

أوشك أن يضحك، فهو يحب صوتها الحلو والسلطة المدهشة التي يحملها.. وقال يدعوها: «هيا.. أخبريني».

سارا في الممر المؤدي إلى الحديقة المسوّرة، رائحة الورود والياسمين تفوح من حولهما ونسيم الليل أشبه بالموسيقى.

هدوء وتناغم في النهار.. واغراء في الليل.. لعله تعلق أكثر من اللازم! قادها إلى أحد المقعدين الجميلين في الحديقة، ومسح عنه الأوراق المتساقطة والزهور الميتة بمنديل أخرجه من جيبه.. فحماية

فستانها الأزرق من الأولويات..

يا للسماء! الشيء الوحيد الذي ينقذها منه، هو معرفته الصح من الخطأ.. مع ذلك بدا أن أنفاسه تتحشرج في صدره، وكانت الرغبة هي الشيطان ذاته.. الرغبة تجعل من أي رجل أبلهاً بكل ما في الكلمة من معنى.

قالت فرانسيسكا وهي توسع له مكاناً قربها، دون أن تعي حالته:

ـ كنت أعتقد أنك ستعرف. إنه مكان غير عادي ولا يبعد سوى ميل أو ما يقارب عن المنزل، إنه منبسط مليء بالعشب، تحدّه اراضٍ صخرية وهضاب رملية صحراوية متموجة. أمّا ما يضفي المزيد من الجمال على هذا المنظر الخلاّب فهو تلك التلة التي تحيط بها ثلاث قمم صغيرة وكأنها تاج قديم. إنها مليئة بالسحر، ففي كل مرة أشاهدها، من مسافة أو من الجو، تبدو لي وكأنها تطوف في سراب أرجواني ضبابي.

بالطبع، عرف المكان الذي تصفه فوراً.. وهي محقة.. هناك شيء ساحر فيه.

قال، يشير إلى هذا المعلم: «أنت تتكلمين عن «مايورا» فرانسيسكا.. شتى أنواع الأساطير مرتبطة بذلك المكان».

قالت بسعادة: «وهذا ما يجعله أكثر بهجة.. ثم إن التلال ليست مرتفعة جداً».

ثم سألت فجأة: «هل هو مكان مقدس؟».

كانت تعرف أن هذا قد يغير كل شيء مع القبائل الأصلية، التي تركّز حالياً على استعادة مواقعها المقدسة.

هز رأسه، وأجاب: «لا.. لكن له علاقة بأرض الأحلام».

أحست بخيبة أمل: «وهل يعني هذا أنك لا تستطيع البناء هناك؟».

قال بثبات: «أستطيع أن أبني أينما أريد، هذه أرض كاميرون، نحن نشعر أن لنا صلة بالأرض كما أخوتنا من الأصليين. ولطالما عاملت عائلة كاميرون رجال القبائل جيداً. لقد جئنا إلى هنا كحماة للارض ومربي ماشية.. لكن، من باب اللياقة، سأبحث الأمر مع شيوخ القبيلة.. إنما مايورا أكثر عزلة من منزل العائلة في أوپال، يا فرانسيسكا».

ـ أتعني صعوبة الحصول على مواد بناء؟

ـ لا.. لا أعني هذا.. ما أعنيه..

وصمت، يدعك عنقه.

ـ يا للسماء.. لا أعرف ماذا أعني.

انصرف تفكيره إلى فرانسيسكا وكأنها الجوهرة، وسط مكانها المثالي. ومع كل سحره، لم يبد هذا المكان مناسباً لها.

قالت فرانسيسكا: «فكر بالأمر».

ـ ألن تخافي وأنت وحدك هناك!

ـ وماذا سيرعبني؟ لم يعد هناك لصوص أدغال. ولن يتمكن أيّ مربي ماشية من الحاق الأذى بي.

مال مبتعداً قليلاً عنها: «أنت لا تعرفين شيئاً عن العزلة.. حين تأتين إلى هنا، تقيمين في أحد أكبر البيوت في البلاد.. كيمبارا. أنت هنا آمنة مدللة في كل الأوقات. أنا أحب الأدغال فرانسيسكا.. وأحترمها كثيراً.. لكن أستطيع القول أنّ أقوى مربي الماشية يمكن أن يخاف هناك لوحده. هناك مناطق وأماكن، طُبعت بجو خاص بها، قد يجعلك ترتعشين. هذه أرض قديمة بشكل لا يصدق.. ونحن وافدون جدد إليها.

ارتجفت فرانسيسكا: «هل تتكلم عن الأشباح؟».

ـ لست أمزح سيدتي.

وأمسك إحدى خصل شعرها بخفة:

ـ لا تستخفّي بما أقوله فتمة أماكن لا يقصدها حتى السكان الأصليين.

أحست وكأنها تغرق في الغموض: «في أوبال؟».

ـ طبعاً في أوبال، وكيمبارا كذلك.. إنها بلاد غريبة فعلاً، إنها بلادنا وليست بلادنا، ليست بلاد العرق الابيض إذا كنت تفهمين ما أعنيه.. أسلافنا جاؤوا من مكان آخر، أسرة كاميرون وأسرة كينروز هاجرتا من اسكتلندا. قد لا تبدو بعض الاماكن عدائية جداً غير أنها ليست مرحبة.

لكن هذه الأرض ترحب بها في كل زياراتها.

ـ لا يمكن أن تعني «مايورا»؟

ـ لم تقصديها يوماً.. أليس كذلك؟

رفعت حاجبين رقيقين، وقالت: «أود ذلك».

فاجأها بالرد: «إذن، هذه فرصتك، فأنا في عطلة الآن. يمكنني أن اصطحبك غداً، إن كنت معارضاً لفكرة بناء منزل هناك».

ـ قد تغير رأيك.

أدار إليها عينيه اللوزيتين، وقال: «أنت تتمنين شيئاً».

فجأة بالكاد استطاعت أن تتنفس: «ما الذي أتمناه؟».

كان من صوته مزاح، وشيء آخر أرسل رجفات عميقة في جسمها.

ـ حلم مستحيل.

تحدته: «أي حلم.. بماذا أحلم؟».

دنا منها وعانقها بحرارة.

ارتجف صوتها: «غرانت!».

قال بصوت أجش: «أنت لا تعرفين حقاً بماذا تحاولين زج نفسك».

ـ ألا ترى أنك فاجأتني؟

لكنها في الواقع خائفة من ردة فعلها أكثر من أي شيء قد يفعله بها.. إنه أجمل رجل رأته يوماً... وعناقهما كاد يفقدها وعيها.

قال بصوت جاف: «أنت آمنة معي فرانسيسكا».

ووقف.. طول قامته يزداد هيبة في نور القمر الفضي.

ـ آمنة، وكأنك جالسة في كنيسة.

ـ الآن أغضبتك.. لماذا؟

ـ أنا لست غاضباً منك اطلاقاً.. لكنني لا أريدك أن تنسي من أنت ومن أنا.

ـ هل أعتبر هذا تلميحاً مبطناً؟

كشر غرانت، وهو يعتقد أنه ضحية الظروف تماماً كفرانسيسكا: «أجل.. إنه كذلك».

انفجرت فرانسيسكا فجأة: «لماذا لا تستطيع أن تُدخل في رأسك أنني امرأة ولست تمثالاً».

شعر بأن النار تتآكله وبأنه يكاد يحترق.. ألا يعجبه أن تكون امرأة؟ كيف يمكن لها أن تقول مثل هذا الشيء السخيف؟ هذا الشيء الأنثوي العجيب.

قبل أن تتنفس، دنا منها ليعانقها مجدداً. أراد أن يلامس بشرتها الدافئة الناعمة.. مجرد التفكير بهذا جعله يجن.. لكنه لا يستطيع ذلك.. إنه أمر مشوش مربك.. كان عليه أن يعتبرها فرداً من العائلة، أو مجرد حمراء الشعر، زرقاء العينين، قديسة فوق منصة، كان يجب

أن يتجنبها منذ البداية.. إنها بعيدة عن مناله.

كان ارتباك فرانسيسكا عظيماً.. بينما راح غرانت يتنفس بثقل، وكلاهما مليء بالحب.. كانت متأكدة من أنه يحبها.. لكن بدلاً من أن يساعدها هذا جعله يشعر بالذنب.. وكادت تبكي.

تقدمت نحوه وأمسكت بكم قميصه: «غرانت.. أنا أهتم لأمرك حقاً. لماذا تدفعني بعيداً؟».

ـ تعرفين جيداً أنني أهتم لأمرك أيضاً يا فرانسيسكا. أهتم بك أكثر من أن أتسبب لك بالتعاسة، وأنا أستطيع رؤية نهاية هذا كله، إذا لم تكوني أنت قادرة على الرؤية.

بدا واضحاً أن اهتمامه حقيقي.

ـ أتعني أنك تعتقد أني سأعود حتماً إلى انكلترا؟

ـ ستتركينني قبل أن أتركك.. انكلترا موطنك، ولك هناك مركز مرموق.. وليس مركز زوجة في هذه البراري، حيث حرارة الشمس قاتلة.

كادت تبكي إحباطاً: «لكن ريبيكا تستطيع العيش هنا.. وكذلك آلي.. وأمي.. ويبدو أن كل امرأة أخرى قادرة.. باستثنائي أنا».

نظر إليها.. كانت فاتنة تماماً وخالط الألم صوته: «هكذا تبدين».

ردت بصوت ساخط: «تظن أنني «آيس كريم» وقد أذوب!».

ـ يا للسماء.. أنا خائف من هذا بالضبط.. اسمعي فرانسيسكا، أنا لا أحاول إهانتك..

ولامس خدها، ثم أضاف: «أنا أحاول أن أقرر ما هو الأفضل لنا معاً».

اهتاجت بغضب مفاجيء: «وهذا، بالطبع، كالقول إنني غبية».

ـ معاذ الله.

وضحك رغماً عنه، فهو يحب الشرر المتطاير من عينيها اللامعتين في ضوء النجوم.

قالت متحدية، وعيناها الزرقاوان متجهتان إلى وجهه الوسيم: «إذن.. لماذا لا تتركني أقرر ما أريده أنا؟».

ـ لأنه خطير جداً.

وانحنى يلامس خدها بخفة: «أنت عالقة في قصة حب عابرة».

وسمعت المزاح في صوته.. بالطبع هي عالقة.. مع ذلك ردت بحرارة: «إذن، من المذهل حقاً كيف تستمر في عناقي».

ضحك لها، فلمعت اسنانه البيضاء.

ـ هذا ما يسمى قلب الأمور رأساً على عقب.. أنا آسف فرانسيسكا، فأنت من بدأت أولاً. أحبك وأنت غاضبة، لكنني لا أريد أن أؤلمك، تجعليني أشعر برغبة في حمايتك كأخ كبير.

تنشقت الهواء المليء بالياسمين متنهدة: «أوه.. يا إلهي! إذن لن نسافر غداً؟»

ابتسم قليلاً: «لا يمكنكِ تخييب ظني هكذا، بالطبع سنف على عقب.. أنا آسف فرانسيسكا، فأنت من بدأت أولاً. أحبك وأنت غاضبة، لكنني لا أريد أن أؤلمك، تجعليني أشعر برغبة في حمايتك كأخ كبير.

تنشقت الهواء المليء بالياسمين متنهدة: «أوه.. يا إلهي! إذن لن نسافر غداً؟»

ابتسم قليلاً: «لا يمكنكِ تخييب ظني هكذا، بالطبع سنفعل. ولن أستبدل الرحلة بالعالم كله، ولسوف ترشديني إلى مكان بناء منزل أحلامي».

أدارت وجهها إليه: «ولماذا أفعل؟».

لماذا؟ وهو سيأخذ إليه امرأة أخرى كعروس.

قال بصوت كالمخمل الأسود: «لأنك اللايدي فرانسيسكا دوليل.. وهذه هديتك لي».

* * *

٣ ـ أشرف الرجال

انفجرت (في) قائلة: «ماذا ستفعلين؟».

اقتربت (في) ودخلت إلى غرفة فرانسيسكا.

ـ سمعتني يا أمي.

وتابعت تسريح شعرها أمام المرآة..

ـ سوف أذهب إلى أوپال مع غرانت. سأساعده على انتقاء موقع لمنزله.

علت وجه (في) تقطيبة درامية: «لا أصدق هذا».

ورمت نفسها على أحد المقاعد، وكأنها أصيبت بانهيار عصبي، ثم أضافت: «يجب أن أسألك حبيبتي.. هل هذا قرار حكيم؟»

ردّت فرانسيسكا باحترام.. وحزم: «طبعاً حكيم يا أمي».

ـ لكنك تعرفين يا حبيبتي أن والدك وضع خططاً كبيرة لك.. لعلي جسدت أكبر كوابيسه، لكنك طفلة أحلامه. إنه يحبك، ويريد رؤيتك سعيدة في موقعك الصحيح، متزوّجة بأحد أصدقاء طفولتك!

ـ مثل جيمي الطيب.. صديقي السابق.

وانتظرت أن يهدأ شعرها كي تربطه.

قالت (في) بتعقل: «ليس بالضرورة جيمي إذا رأيت أنك لن تستطيعي أن تحبيه.. لكن هناك آخرين حبيبتي، روجر وسباستيان، مثلاً».

ـ لكنني لا أحب أياً منهما. لم يطلب أبي إذني حين تزوج هولي.. لقد ذكر الأمر لي قائلاً إنه يفكر بالزواج مرة أخرى.

نظرت إلى ابنتها الجميلة بحنان الأمومة: «كم هذا غريب لأنه كره كل دقيقة من زواجه مني».

صححت لها فرانسيسكا: «لا.. هذا غير صحيح ماما. بل أحبك. ولبقي متزوجاً منك إلى الأبد لو لم تهربي».

ـ في الواقع كنت مضللة جداً.. لكنني لطالما كنت مرغوبة.

ـ لن تهربي من دايفد.

احتجّت (في)، وقد احمرّت خجلاً: «حبيبتي.. وكأنني أريد هذا! أخيراً فهمت كل شيء بطريقة صحيحة.. وكان هذا أفضل ما فعلت. على أي حال نحن لا نتكلم عني.. بل عنك. لا تعتقدي أن لدي شيئاً ضد غرانت.. إنه شاب ممتاز، ومثير. حتى أنه يجعلني أشعر باحساس غريب.. لكن، لديه وجهات نظره الخاصة في الحياة. ليلة أمس كان يخبرنا عن خططه وعن التزامه هنا، في البراري الأوسترالية النائية».

قالت فرانسيسكا وهي تعقص شعرها في جديلتين: «ألا تظنين أنك تتمادين كثيراً يا أمي؟».

شخرت (في) ساخرة: «هيا حبيبتي.. أعرف كل شيء عن علاقات الحب.. الجو يكاد يتفجر بينكما».

سألت فرانسيسكا: «علاقة أيام عطلة؟».

فكرت (في) قليلاً: «حسن جداً.. هذا إذا أردت أن تخرجيه من أفكارك تماماً.. أنا لا أراكما معاً حبيبتي. أرى فقط ألم قلب وفراق. أعرف أن هذا ليس بالأمر السهل.. ولكن على المرء أن يكون حكيماً».

رفعت فرانسيسكا حاجباً رقيقاً: «أجل.. بالطبع أمي.. لكنني

ذاهبة معه لأساعده على انتقاء موقع لمنزل جديد.. فغرانت لا يريد أن يتطفل على راف وآلي».

قالت (في): «يا إلهي كم هذا لطف منه.. لكن المكان ضخم. ثم لِمَ لا يشتري ملكية؟ لا بد أن دوغلاس ترك لولديه ما يكفي لهذا».

ـ أنا واثقة من أن راف لا يريد أن يخسر أخاه.. إنهما مقربان من بعضهما.. بسبب ظروف حياتهما الحزينة.. فلما شراء أملاك جديدة في حين يمكن لغرانت أن يبني منزلاً عائلياً ثانياً في أوپال؟.. والله يعرف أن لهما عالماً خاصاً بهما، كما لبرود هنا.

أقرت (في) مستسلمة: «بل مملكة على الأقل.. كان أصدقائي يُذهلون وهم يصغون إلى قصص طفولتي في كيمبارا.. لكن، لا تحاولي صرف نظري.. أنا أحاول جاهدة لعب دور الام.. باختصار، أحاول تحذيرك حبيبتي. قد تتألمين كثيراً، وكذلك غرانت. ويجب أن أقول لك أيضاً، إن رجال أسرة كاميرون يحبون التملك. هم فخورون.. فخورون بشدة، ويجب أن تعيشي مع هذا».

بدت عينا فرانسيسكا حالمتين: «في الواقع.. يعجبني هذا».

ـ حبيبتي.. في العادة ما كنت لأتدخل.. ولكن ينتابني إحساس بأن كل هذا قد يكون خطيراً.. ماذا يجول في فكرك حقاً؟ بالتأكيد، أنا كأمك من حقي أن أعرف؟

وجدت فرانسيسكا نفسها تغوص في مقعد قبالة أمها.. وقالت تشرح:

ـ أنا لم أشعر بمثل هذا من قبل يا أمي.. أشعر وكأنني مشتعلة من الداخل.

هزت (في) رأسها: «لقد وقعت في الحب.. وحظك السيء أوقعك في حب غرانت».

قفزت فرانسيسكا فوراً وهي غاضبة: «هذا ليس بالأمر المضحك أمي».

ووقفت (في) بدورها.

ـ لست أمزح حبيبتي، بحق السماء! أنا قلقة من نتائج هذه العلاقة، لديك كل شيء في انكلترا.

ردت فرانسيسكا: «ما عدا غرانت».

بدأت (في) تشعر بالقلق:

ـ ربما.. لكن هذه الحياة لا يمكن أن تكون مختلفة أكثر فران.. أنت لم تري كيمبارا تعاني الجفاف.. أو الفيضان. لا يمكن أن تعرفي، لم تكوني هنا حين وقعت المآسي.. فلنواجه الأمر حبيبتي. هل تريدين حقاً نمط الحياة هذا؟ هل يمكنك التعامل معه؟

قالت فرانسيسكا: «ربيكا في أحسن حال هنا».

ـ ربيكا ليست أنت. وأتوقع أن تعود إلى الكتابة مجدداً.. سيكون لديها ما يلهيها.. وستؤسس عائلة مع برود.. فكيمبارا تحتاج إلى ورثة.

تحدتها فرانسيسكا: «وماذا عن آلي إذن؟ كان يمكن أن يكون لها مستقبل كبير في السينما.. ولقد تخلت عن كل شيء من أجل راف».

عادت (في) إلى مقعدها، تنظر إلى ابنتها والشفقة في عينيها.

ـ أوه حبيبتي.. آلي أكبر بقليل منك.. وكان لديها وقت أطول لتفكر بما تريده حقاً في الحياة، لم تخلص لعملها كما يجب على الرغم من أنها ممثلة جيدة.. أما أنا فالمسرح كان كل شيء بالنسبة إليّ.. هذا هو الفرق.

لكن ثمة ناحية مدمّرة في كل هذا، غير أن فرانسيسكا لم تذّكر أمها بها. فرقة قلبها منعتها من أن تقول لها إنها ممثلة رائعة، لكنها لم تكن

أفضل الأمهات.

قالت بهدوء: «العمل ليس الطريق الوحيد إلى السعادة والاكتفاء يا أمي..».

وجلست على حافة السرير، وهي تضيف: «أجد تربية الأطفال عملاً رائعاً.. وأنا أريد أولاداً. وأفضل أن أجد الرجل المناسب بدلاً من أن أكون ناجحة في عالم العمل، ولو أن معظم الناس يقولون إنني بارعة جداً في العلاقات العامة».

ـ ولا يضرك أن يكون لك أب صاحب لقب «ايرل».

لم تستطع فرانسيسكا سوى أن تتكلم بحدة: «هذا لم يعطني وهجاً دافئاً أمي.. لازلتما تنظران إليّ وكأنني طفلة».

كان هذا صحيحاً.. وتنهدت (في):

ـ آه.. حسن جداً.. أنت صغيرة جداً حبيبتي. والأكثر من هذا.. أنت حلم والدك، أنت ذكية، جميلة، فاتنة، وقدرك هو الأمور العظيمة.. ويجب أن تدركي كذلك أن ابنك سيرث والدك.

نظرت فرانسيسكا إلى أمها بهدوء: «حتى غرانت ذكر ذلك».

هزت (في) رأسها: «أنا واثقة من أن هذا يقلقه، مهما كانت مشاعره نحوك لا بد أنه يدرك الموقف».

انفجرت فرانسيسكا بسخط: «أي موقف.. أي شخص يمكن أن يظن أنني فرد من العائلة المالكة.. أنا وغرانت متساويان. وإذا فكرنا بالأمر، لطالما امتلكت أنت مالاً أكثر من أبي، وأعرف أنك ساعدت في صيانة «أورموند» بمال كثير».

تنهدت (في): «يمكنك قول هذا مجدداً! لكنني لا أشعر أنني أفضل حالاً، يوماً ما سيعيش فيه حفيدي.. أنا لا أريد أن اعترض حبيبتي.. ولا أريد أن أكدرك.. أعرف الشعور الرائع الذي يصاحب

التفكير بالحب.. ولكن علي مساعدتك على النظر بثبات إلى مستقبلك، أشعر بمحبة كبيرة لأسرة كاميرون، راف وغرانت.. إنه شاب يثير الإعجاب.. إنه بارع، عدواني، وعنيد من وقت لآخر، وقد تجدين الأمر مثيراً الآن.. لكن مع تقدمه في السن ستتغير الأمور، والديناميكيون بطريقة ما، أناس خطرون.. ويخاطرون كثيراً».

ـ أنا لا أخشى شيئاً أمي.

لفت فرانسيسكا ذراعيها على قائمة السرير الماهوغوني وقد بدا الجد في صوتها..

ـ أظنه يفضل أن يموت قبل أن يؤذيني.. وما يخيفني هو فكرة أنه قد يرفضني ظناً منه أن هذا لصالحي.

ضحكت (في) ضحكة غير مريحة: «حبيبتي.. وهل فكرت في أنه قد يكون محقاً؟».

وظهر التوتر على كل خط من خطوط جسم ابنتها النحيل.. وهو ما فسرته (في) كنوع من الضعف.. وعدم القدرة على تحمل القسوة..

معارضة أمها الظاهرة، كانت بمثابة طعنات صغيرة لقلبها. وتحركت فرانسيسكا عن السرير بسرعة: «ما عدا أنني لو خسرته سأندم لما تبقى من حياتي».

حطت الطوافة بهما على المرج الأمامي لأوبال، فتطاير العشب اليابس، والأوراق البرونزية والذهبية اليابسة.. حين هدأ الهواء، نزلا، ونظرت فرانسيسكا بسعادة كبيرة إلى منزل العائلة الفخم، بأقسامه وشرفاته، ومدخله والحديد الأبيض المزخرف الذي يشبه الحفر على الخشب. صحيح أن أوبال تفتقر لفخامة كيمبارا، لكنها منزل أثري للمستعمرين الأوائل، وقد أضفت العرائش مظهراً فخماً عليه. ولكن بدا واضحاً أن غرانت لم يصرف الكثير من الوقت على ما كان يوماً

حديقة المنزل الواسعة.. بدا المرج مصفراً من حرارة الشمس بينما البرك الثلاثة الرئيسية جافة مغبرة. لكن، وبالرغم من كل هذا بدا المبنى جذاباً بشكل مذهل، وعرفت فرانسيسكا أن آلي ستمضي وقتاً رائعاً لتعيد المنزل وما يحيط به إلى مجده السابق.

أمسكها غرانت بذراعها، وقال: «تعالي وألقي نظرة على المكان.. إنه هادىء جداً عندما يكون خالياً، وكما ترين الحدائق التي كانت أيام أمي مزهرة، ذبلت.. إذ ليس لدينا متسع من الوقت للعناية بها. صحيح أن أحداً منا لا يعرف الكثير عن الحدائق، لكننا افتقدنا فعلاً ما كانت عليه في حياة أمي.. تلك اللمسة الأنثوية الرائعة غابت.. لكن آلي سوف تعيدها.

رفعت فرانسيسكا رأسها وابتسمت والسعادة تسري في دمها. والتمعت عيناها:

ـ ستمضي آلي وقتاً رائعاً، أنا أحب هذا المنزل العائلي.. إنه جميل بشكل غير عادي.. في الواقع، أرى فيه الآن الموقع المثالي لفيلم أمي الجديد.

ـ ماذا تقولين؟ ظننت أن المخرجة ستأتي إلى كيمبارا لرؤيتها؟ هذا ما قالته (في) على العشاء ليلة أمس؟

ـ في الواقع، أمي فعلت هذا دون أن تسأل أحداً.. صحيح أن برود لن يرفض، وريبيكا سيسعدها هذا، لكنني قرأت النص، وكيمبارا.. كيمبارا..

وسعت إلى الكلمة المناسبة. فاقترح عليها ساخراً:

ـ تكاد تتأرجح في ضخامتها؟

ـ بكل ما للكلمة من معنى. لقد أنفق خالي ستيوارت ثروة على صيانة المنزل، وهذا واضح.

نظر في عينيها مباشرة: «وهذا ما لم تفعله أسرة كاميرون».

وأحب احمرارها المفاجيء، احمرار وردي لم يكن موجوداً منذ لحظة.

وهزت رأسها: «لا أعني هذا.. بل أعني أنك تجد في أوبال الحياة الجميلة...».

ـ والسحر الباهت؟

ـ وهل ستنهي لي كل جملي؟

ابتسم: «إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة».

سارا معاً تحت ظل الشرفة.

ـ لو قرأت النص، لعرفت ماذا أعني.

سخرت ابتسامته منها: «فرانسيسكا.. لقد قرأت القصة قبلك».

بدت مبتهجة: «حقاً؟».

ـ من يعيش في هذه البراري النائية، يكون قارئاً ممتازاً.. ألا تعرفين هذا؟

ـ في الواقع أعرف.. والمنزل في أوبال، هو المكان الذي يبحثون عنه حقاً.

فتح الباب الأمامي وهو يقول: «ربما.. لكن من يحتاج إلى كل هؤلاء الناس؟»

استدار لينظر إليها في قميصها القطني البسيط وبنطلون الجينز.. من قال إن حمراوات الشعر لا يستطعن ارتداء اللون الزهري؟.. لم يشاهد قميصاً زهرياً أجمل من هذا من قبل.

التمعت عيناها، وقالت: «قلت بنفسك إن المكان موحش. وأتوقع أن ينتهي تصوير المشاهد خلال شهر.. وريفرسلاي المنزل الأساسي للتصوير في سيدني، سيكون للمشاهد الرئيسية.. على أي حال.. هذه

مجرد فكرة».

ـ لماذا اذن تلمع عيناك الزرقاوان وتنبضان بالحياة؟ آخر مرة التمعتا هكذا، كنت تتحدثين بحماس عن مشروعي مع دروفورسايت.

سارت نحو الردهة الفسيحة ونظرت حولها قبل أن تقول: «لدي الكثير من الأفكار».

ـ أستطيع أن أرى هذا.

أدارت جسمها الصغير إليه، وقالت: «إذن، هل من المسموح لي أن أناقش هذا مع أمي؟ سيحضر الكاتب وكاتب السيناريو إلى هنا بعد يومين».

أجفل تماماً، وسألها: «أنت تمزحين أليس كذلك؟»

ردت ببساطة: «لا.. سيكون من الرائع رؤية أوبال على الشاشة الكبيرة. وهذه ليست المرة الأولى التي يستخدم فيها منزل للمستعمرين الأوائل في فيلم أوسترالي.. وأظن أنها فكرة رائعة! سيروقك الأمر».

اعترف: «حسن جداً.. ربما.. لكن، فرانسيسكا، لن أكون هنا خلال النهار.. لدي عمل».

ـ حسن جداً.. إذن لن يزعجك أحد.. وسيكون لديك صحبة جيدة على العشاء.. وقد ترغب في أن تكلّم راف وآلي في هذا الموضوع؟

ضحك بصوت ساخر: «حبيبتي.. هل تذكّريني بواجباتي؟».

كلمة «حبيبتي» كادت تخطف أنفاسها.. وقالت: «في الواقع أنا أمزح».

تحوّلت ضحكته من السخرية إلى التسامح: «لا.. أنت لا تمزحين.. تريديني أن آخذ الأمر بجدية».

قالت صادقة: «أقسم أنني لم أفكر بالأمر إلاّ منذ خمس دقائق..

نظرت إلى المنزل.. فلاحت لي الفكرة. لقد دفعني موقع المنزل للكلام».

فكّر غرانت.. كرجل أعمال وقال: «يدفعون جيداً كما أتصور».

ـ أنا واثقة من هذا.

ـ في هذه الحالة، راف يساهم في برنامج لإعادة تأهيل الأولاد الذين يعانون من مشاكل.. إنه نوع من البرامج حول عمليات الانقاذ في الأدغال.. وأنا مهتم به كذلك، لكن راف هو الذي يدير المزرعة، وهذا في الأساس من اهتماماته، وسيستفيد البرنامج من المال.

أحست فرانسيسكا برجفة إثارة حقيقية: «يا لها من فكرة جيدة.. سمعت بموضوع البرنامج من آلي. إن للأدغال هنا قوة شفاء كبيرة».

ـ إنها المعبد الطبيعي.. وكلمة الله مسموعة بوضوح هنا. لكن، مهلك فرانسيسكا.. قد يكون لأمك أفكار أخرى.

ابتسمت ابتسامتها المحببة وقالت: «ليس بعد أن أتحدث إليها».

ـ أصدقك.. لكن يجب أن تنتظري قليلاً ريثما أكلم راف وآلي.. قد لا يرغبان في أي شيء من هذا.

رفعت وجهها إليه، وأجابت: «لست واثقة من راف، لكنني أعرف أن آلي سوف تبتهج.. وقد ترغب في العودة لتكون في المنزل حين يبدأ التصوير.. وسنستمتع جميعاً برؤية (في).. إنها تندمج بالدور الذي تؤديه، إلى درجة أنها تجعلك ترتجف إعجاباً.. ما أن تُنهي تبرجها، وترتدي ثيابها، حتى تصبح ذلك الشخص الآخر».

وكان بإمكان غرانت أن يصدق هذا.. فقد رأى (في) تتحوّل إلى عدد لا يحصى من الشخصيات عندما تروي القصص.. وسأل فرانسيسكا:

ـ ألم تفكري بالتمثيل؟

ـ صدق أو لا تصدق.. كنت أعتبر ممثلة جيدة في المدرسة.

ـ وهل كانت (في) تذهب لرؤيتك؟ لتقول لك كم أنت رائعة؟

ارتجفت ابتسامتها قليلاً، وقالت: «كانت مشغولة جداً في ذلك الوقت، فاتتها كل أدواري.. لكن أبي اعتاد أن يأتي».

وأحس بألمها القديم، فتأوه مشفقاً: «آسف.. لقد أثرت ذكرياتك».

ـ لم تعد تؤلمني.

ـ هل أنت واثقة؟

وأراد ضمها إليه، لكنه كان يعي أن هذا الامر قد يخرج عن السيطرة، فهي تجعل دمه يفور. إنها ليست مجرد تمثال جميل.. إنما تتحلّى بالذكاء والمرح والإشراق.

قالت: «لا أظنني قادرة على أن أحب أمي أكثر مما أحبها الآن.. أعرف أنها مميزة، لكنني افتقدتها مرات ومرات خلال حياتي».

واستعرضت فرانسيسكا السنوات التي مرت عليها لكنها لن تعترف بشيء الآن وقد انتهت الغربة.

قال غرانت، وهو يفكر باكتئاب: «كان يمكن لهذا أن يدمر علاقتكما إلى الأبد.. لكنك رقيقة القلب.. لقد تصرفت (في) بلطف معنا حين غادرنا.. لكن لدي إحساس بأنها كانت خائفة من شيء».

تقدمت إليه، وأمسكت يده تحاول إلهاءه: «أوه غرانت، لا تتكلم عن هذا، أشعر برغبة في فنجان قهوة.. وأريد القاء نظرة على المنزل».

ـ تعرفين أنك آمنة معي.

نظرت مباشرة إلى عينيه: «بالنسبة لي أنت أشرف رجل على وجه الأرض».

ـ فرانسيسكا!

لم يعد يحتمل، فشدها إلى ذراعيه واستولت مشاعره على زمام الأمور.

- يجب أن أقول لك إنني أعاني من هذا..

- وما هو السوء في أن نحب؟

ذابت بين ذراعيه القويتين فقال بصوت خافت ومفعم بالاحساس:

- الحب أمر رائع فرانسيسكا.. العالم كله يصبح جميلاً.. مكاناً رومانسياً.. لكن الوقوع في حب الشخص غير المناسب قد يدمر الحياة.

وبخّته بلطف، ورفعت رأسها نحوه، قائلة: «إذن لماذا لا تتركني أذهب؟».

أصبحت تعابيره ساخرة، وهو يجيب: «يبدو لي أن لذراعيّ حياةً منفصلةً».

- إذن، أنت سعيد بمعانقتي؟

- أحب عناقك.. ويمكنني أن أضمك هكذا إلى الأبد. وأمضي حياتي وأنا أنظر إلى عينيك، وأحملك معي إلى عالم من الحب.. لكن هذا لن يحضّر لنا القهوة.

أدارها نحوه بسرعة، وسألها: «كيف تحبين القهوة؟»

- أنت شيطان خبيث.

حذّرها بعينين لامعتين، قائلاً: «في نفس كل رجل شيطان.. لكنني سأبقيه مختبئاً وأنا قريب منك».

امتطيا جوادين لينطلقا في درب متعرج إلى التلة القديمة المسطحة التي يسميها السكان الأصليون «مايورا»..

المكان يعجّ بحيوانات الكنغر المتعددة الأحجام. رائعة هي حين تقفز متباعدة عبر البراري المنبسطة.. أو تشرب من الجداول ثم ترفع

رأسها نحو السماء. آذانها منتصبة، وأنوفها مرتجفة، وفي عيونها الضخمة اللامعة نظرة فضول..

خلال هذه الرحلة الرائعة، بقي غرانت في الظل، يمشي بمحاذاة الأشجار المحيطة بالبحيرات، حيث يفوح عطر «الاكاسيا» التي تنمو بكثرة في المنطقة. ذُهلت فرانسيسكا بهذا المشهد الساحر ورأت في هذه الأدغال سحراً عظيماً. كان دم أمها يحدثها.. واستوعبت كل هذا في روحها.

عندما وصلا إلى مايورا، بدا الجو مشحوناً بالتوتر.. اليوم، كانت السهول ممتدة إلى مسافات لا متناهية.. في سنوات الخير، كانت الملايين من الأزهار تتفتح لتشكّل سجادة مزركشة تمتد حتى الأفق البعيد، لكن المنظر خلاّب أيضاً في أيام الجفاف.

قال غرانت برضى كبير: «أنت تستمتعين حقاً.. أليس كذلك؟».

همست فرانسيسكا متنهدة: «هذا مكان مميز».

وأخذت تراقب غرانت وهو يربط الجوادين إلى جذع شجرة ضخمة يابسة شبيهة بالهياكل العظمية ثم تابعت حديثها:

- عليك أن تبني منزلك هنا.. وسط هذا السهل المنبسط.. مع مايورا كمنظر خلفي. لا بد أن المنظر خلاب عندما تزهر الأراضي.. لقد فاتتني رؤية هذا في زياراتي كلها.

- يجب أن تعودي إلى هنا حين يكون الوقت ملائماً.

كان صوته عادياً، إنما شعر بألم عميق لزمه لحظات عدة ليزول.. وتابع:

- تمتد الزهور على مد النظر، ميل بعد ميل، تستمر الزهور.. فوق قبور الرواد.. فوق قبور المكتشفين الضائعين.. وكأن عطرها يأتي من السماء. في السنة الماضية بعد أمطار الشتاء، كادت الأرض تختنق

بأوراق زهور الربيع البيضاء والصفراء والذهبية، وأزهار الخشخاش وشقائق النعمان الحمراء، يغطيها بساط من الثلج. إنه لمنظر خلاّب فعلاً. راقبت الصحراء طوال عمري حتى في أوقات الجفاف، بحيث لا أستطيع أن أصدق أن الزهور قد تنمو مجدداً.. لكن الحدائق تزهر رغم ذلك.

قالت فرانسيسكا ببطء وهدوء: «إنها معجزة».

لكنها صدمت بقبوله العفوي لفكرة أنها ستعود إلى وطنها.

سار نحوها، وهو يقول: «بالتأكيد تبدو معجزة، لقد أجريت تجارب على بذور الصحراء العجيبة.. تبيّن أنها تحتوي على كيماويات تمنعها من أن تنبت مجدداً إلى أن يحين الوقت الأمثل لذلك، أي أنها تنتظر الضوء الأخضر من الطبيعة.. وهي لا تزهر مثلاً بعد مطر قليل لتعود وتموت.. الوقت الأمثل يؤمن للبذرة الدوام لأجيال مستقبلية».

وأشار إلى التل القديم المتوهج. وأكمل:

ـ عندما يحين الموسم، تكثر الأزهار الجميلة هناك في الأعلى، في مايورا. تنقل الريح البذور إليها، فتكاد الزهور المروحية والخبازى والزنابق الصغيرة، والبنفسج تغطي الصخور على جانب التل، وتتمايل في الهواء.. على أي حال.. تعالي.

وأمسك يدها: «لدي شيء مميز أريك إياه، شيء لا نتكلم عنه كثيراً في أوبال خصوصاً، لحمايته».

ـ هذا أمر مثير! ما هو؟

رفعت نظرها إلى وجهه الذهبي البشرة، وتأملت عينيه المموجتين المظللتين بطرف قبعته العريضة.

ـ كل شيء في حينه.

وتوقف ليلامس ذقنها بأصبع لطيف، معلقاً: «يا إلهي.. أنت

جميلة!».

لم يكن يقصد أن يقول هذا، لكن الكلام خرج من فمه تلقائياً. لماذا يرسل كل هذه الرسائل الخطيرة المتضاربة؟ لكن وجهها الجميل بدا جذلاً بالفعل.

قالت: «أنا سعيدة».

قال بهدوء: «هذا ما أتمناه لك دائماً».

لكن شيئاً في صوته انقلب إلى القسوة.

ـ دعينا نتسلق إلى القمة.. إنها ليست بعيدة ومنظر الأرض المحيطة مذهل.

بالرغم من تناقضه، تملّك فرانسيسكا ابتهاج عارم أعطى أجنحة لقدميها الصغيرتين.. كانت كالغزال، تصعد المنحدر الصخري، بقدم واثقة، تمسك يده، لكنها تتابع صعودها وكلها ثقة بنفسها.

حين وصلا أخيراً إلى القمة، أعلنت مقطوعة الأنفاس: «أوه.. هذا رائع!».

قال ينصحها، بشيء من الحماية المبالغ فيها: «التقطي أنفاسك».

ابتسمت له ابتسامة مشرقة، وقالت: «لست مخطوفة الأنفاس».

ـ لا.. لست مخطوفة الأنفاس.

استدارت ورفعت ذراعيها إلى الأعلى:

ـ إنها واسعة جداً! مربكة. كم أحب ألوان هذه الأراضي.. كل هذه المساحات الواسعة. إنها عميقة تلاعبت عوامل الطقس بها لكنها تنبض بالحياة.. والسماء زرقاء.. لا غيمة على مرأى النظر.. لا بدّ أن المستكشفين الأوروبيين ظنوا أنهم وصلوا كوكباً آخر. فقد اجتازوا آلاف الأميال بدون أن يروا أثراً لانسان، إلاّ قبائل البدو الرحّل. وهذا البحر من الرمال الحمراء يمتد ويمتد إلى ما لا نهاية.

تقدم منها، ليرى كم هي قريبة من الحافة، ثم قال: «في الصحارى مناظر طبيعية رهيبة.. لكنها أفخاخ موت.. فلا تنسي هذا. المعرفة واجبة.. وعلى الرغم من توفر وسائل النقل الحديثة والمعدات، قد تسوء الامور أحياناً».

حذرته بلطف: «هاي غرانت.. لا يمكنك صدي».

ـ أرى هذا.

ـ ثم إن «تشانل كنتري» صحراء نهرية.. كل تلك الشبكة من الأنهار المتداخلة والجداول، والسواقي والبحيرات.

ـ في موسم الجفاف، غالباً ما تجف كلها باستثناء السواقي. أما في أيام الطوفان فالأنهار تجري لأميالٍ عديدة.. هذه هي «تشانيل كنتري». سهل واسع يغطي خمسة بالمئة من مساحة القارة.. خلال أشهر الرياح الموسمية، يتعرض هذا المكان والصحارى الشمالية أحياناً لعواصف قوية، اختطفت احداها حياة ستيوارت كينروز وكادت تقتل ريبيكا. هدير الرعد مرعب جداً، ويرافقه برق رهيب. حين تضرب الصاعقة، يمكن أن يشتعل العشب لمدة أيام.

ـ إذن أنت تقول لي إنها بلاد متوحشة جميلة.

ـ على المرء أن يتذكر هذا طوال الوقت.

نظرت فرانسيسكا حولها إلى السهول المنفتحة الواسعة، وقالت:

ـ مع ذلك فهي هادئة بشكل غريب، الإنسان يحتاج إلى البراري.. إلى هذه السهول المنفتحة.. ففيها نوع من الوقار، وشخصية قوية. حين يحب المرء حياة المدينة، يعيش فيها، أمّا أنا فلطالما أحببت الريف.. أنا مثل والدي.. أحب الأرض.

ـ لكن هذا، بعيد جداً عما أنت معتادة عليه فرانسيسكا.

ـ بكل تأكيد.. لكن المرء يعي دائماً روعة الأرض، فهي ليست

معادية لي.. ألا ترى هذا؟

ـ فرانسيسكا.. أنت إنكليزية كلاسيكية.

ـ وأنت، يمكنك أن تكون اسكتلندياً كلاسيكياً عنيداً.

أحنى رأسه باعتراف ساخر: «على أي حال.. أحب صحبتك، أحب هدوءك، أناقتك الأرستقراطية، وهذه النزعة النارية الصغيرة التي تظهر من حين إلى آخر».

ـ لكنك تحبط أي شيء يتعدّى الصداقة.

ـ في الواقع.. أعتقد أنني أتصرف كما ينبغي.

ـ سأذكّرك بهذا حين تتزوج وتستقر. لكنك لم تقل لي.. ما رأيك بفكرة مايورا لمنزل عائلي؟ إنها منطقة ساحرة.

ـ ألا تعتقدين أن عليّ استشارة عروس المستقبل؟

ـ ليس بالضرورة.. لقد عاش أسلافك في أوبال لأجيال طويلة.. وأنا جزء من هذا كله.. أنا سليلة سيسيليا كينروز التي تزوجت قريبها إيوان كينروز، في حين كانت تحب تشارلز كاميرون.

تأوه غرانت، وقال: «لقد ذاعت هذه القصة في البلاد لفترة طويلة».

ـ ولا بد أنها كانت صحيحة.. ما رأيك؟ لا بد من وجود سبب جعل سيسيليا تدير ظهرها للرجل الذي أحبته؟ ثم هناك قصة العقد الشهير من الأوبال والماس.. عقد سيسيليا.. كلا الرجلين أعطاها إياه، كينروز وكاميرون.

بدّل غرانت الموضوع لأنه كان يعرف إلى أين قد يؤدي هذا الحديث: «أحب لكنتك».

لم تمنعها مقاطعته من أن تكمل حديثها:

ـ وأنا أحب لكنتك على أي حال، ولمتابعة الحديث، ربما سمح

سلفك لسلفي بأن يناوره. لعل سلفك حاول إقناع سيسيليا بألاّ تبقى هنا.. وكان هذا أمراً صعباً في البداية. ولعله وجد نفسه مضطراً لتحذيرها.. ولعله جادلها أيضاً، وحثها على العودة إلى اسكتلندا من أجل مصلحتها.

قال ساخراً: «كنت واثقاً من أنك ستلفين وتدورين حتى تقولي هذا؟».

ابتعدت عنه بضع أقدام، وسألته: «أتساءل ما الذي حدث؟».

ونظرت إلى السهل المغطى بالعشب والنبات الشائك.. كان السراب يتسع، ليخلق أشباح تلال وبحيرات.

قال غرانت: «تعتقد عائلتي أن هناك خدعة ما.. لقد تمكّن كينروز من إقناع سيسيليا، بأن صديقه وعد امرأة أخرى بالزواج.. امرأة مناسبة أكثر لنمط حياته. وهي في الواقع، المرأة التي تزوجها تشارلز كاميرون في النهاية.. لكن ماذا يهم الآن؟ لقد اتحدت العائلتان مجدداً، لكن الرجلين لم يبقيا مقربين من بعضهما البعض.. هكذا يحدث مع كل خيانة.. والله يعرف أن رجلاً مثل ستيوارت كينروز، كان بإمكانه أن يلعب دوراً كهذا».

وخرج الاتهام، وليد كراهية وحزن قديمين، فاحتجت فرانسيسكا:

ـ لكن جدي لم يكن هكذا.

وأحست بلذعة الحقيقة في ما قاله غرانت عن خالها ستيوارت وأكملت: «كان السير أندرو محبوباً ومحترماً».

وكان هذا صحيحاً.

ـ آسف.. أنا آسف فرانسيسكا.. كان السير آندي رجلاً رائعاً.. دعينا لا نتحدث عن التاريخ القديم.

تنهدت، وقالت: «يبدو لي أنّ لهذا امتداداً إلى أيامنا هذه، فالجميع ينزعج عند ذكر علاقة الحب القديمة تلك».

قال بحدة: «علاقة حب سارت خطأ.. أرجعي عن الحافة.. هناك الكثير من الأماكن غير الثابتة».

أطاعت على الفور: «أنا لست مغامرة.. لكن في المكان سحر يفرض نفسه».

ـ أخبريني.. هل رأيت ما يكفي؟

وكان قد تأثر بردات فعلها وبالسعادة العظيمة التي شعرت بها خلال هذه الرحلة.

ـ حتى الآن.. لكنك وعدتني بمفاجأة.

أمسك يدها مجدداً، وقال: «سوف أريك إياها.. سنسلك طريقاً أخرى نزولاً».

كادت تغفل عن رؤية المدخل الذي يحرس الكهف المحفور في الصخر.

ـ لقد وصلنا.

أحست بالإثارة، والترقب، فقالت: «أوه.. يا إلهي! لا تقل لي رسومات صخرية؟».

ونظرت إليه راغبة بأن يقول «نعم!»

فابتسم لحماستها، وأجاب: «هذا ليس موقعاً أثرياً مسجلاً.. ولا بد من وجود الآلاف منه في كل المنطقة.. نحب أن نبقي هذا الموقع سراً.. ليس بالموقع الهام، لكنه ساحر، وهو موجود هنا، والله وحده يعلم منذ متى.. السكان الأصليون يحبون إضفاء الألوان والحياة على ملاجئهم وكهوفهم.. سواء في التلال الداخلية، أو النتوءات الصخرية، أو أي مكان قد يبرزون فيه فنهم.. الكثير موجود منها في أماكن لا

يمكن الوصول إليها.. والعائلة لم تعرف بوجود هذا المكان إلا مؤخراً. أما السكان الأصليين فيعرفون طبعاً بوجوده.. ويبدو أنهم قرروا في أيام جدي، أن يطلعوا أسرة كاميرون على مواقعها لأنها تحترم ثقافتهم التقليدية».

تحولت تعابير فرانسيسكا إلى مزيج من الخشية والحيوية، وسألت: «ولماذا لم أسمع بهذا؟».

ـ لكنت كررت القصة على مسامع الجميع.

وأزاح غصناً أخضراً، بأوراقه الطويلة النحيلة، وكومات من الأشواك البرتقالية اللون، التي بدت وكأنها بنيت من الصخر، ليكشف المدخل الواسع، القليل العمق.

قالت فرانسيسكا وهي تنظر إلى الداخل: «يا للسماء، كان بإمكانك أن تثق بي».

قال بلهجة جافة: «أنا أثق بك الآن.. كما إنني أريد هذا الشريط الذي على شعرك».

استدارت بدهشة، وسألت: «حقاً؟».

وقفت مسمرة وهو يمد يده ليسحب الشريط عن جديلتها السميكة المرفوعة على رأسها.. وعلى الفور انسدل شعرها على كتفيها.. فابتسم بافتتان.. إنه أجمل شعر رآه في حياته.

ـ لا تقلقي فرانسيسكا، سأعيده إليك.. أما الآن فأريد ربط هذا الغصن لكي تدخل أشعة الشمس إلى الكهف، وإلا لن يكون النور كافياً.

ـ احتفظ بالشريط.. كذكرى.

وجدت نفسها ترتجف للنظرة التي في عينيه.. ولم تستطع ازاحة نظرها. أحست بأنها عاجزة عن الحراك. ربط الغصن، ثم أمسك

ذراعها ليبعدها قليلاً عن الكهف.

ـ ابتعدي قليلاً عن كل ما يؤذي ريثما أتفحص الداخل.. لعل حيوان ما اتخذ من الكهف مسكناً له.

ارتجفت: «طالما ليست...».

عاد غرانت بعد لحظة قائلاً: «كل شيء على ما يرام.. في الواقع نسيت كم أن المكان رائع».

لحظة دخلا الكهف الرملي الأرض، استقامت فرانسيسكا.. والتمعت عيناها عند رؤية الصور القديمة.. إنها كثيرة جداً! لم تستطع فرانسيسكا أن تفهمها لكنها وجدتها جذابة جداً. على السقف، كانت أعلى نقطة في القبة تصل إلى ثمانية أقدام، والرسومات عليها مختلفة تماماً. فهمت على الفور أنها رسومات إناث وذكور في أوضاع غرامية، يشرف عليها ما يبدو وكأنه رمز العشيرة أو الأرواح.. على الجدران البعيدة، رأت رسومات «كنغر»، ونعام أوسترالي وأفاعي، وأسماك، وطيور، وما يشبه الحشرات العملاقة.. إنها رسومات بسيطة الخطوط لكنها رقيقة وفاتنة.. تحيط بها أيدٍ بشرية، وكأنها للزينة.

ـ لا يسعني التصوّر أنني رأيت كل هذا في يوم واحد!

كان صوتها حاداً خافتاً، مخالفاً في حدته لكل الرموز والمخلوقات القديمة الصامتة.. بالرغم من الرسومات، لم تكن عابثة بأي شكل.. فللرسومات قوة غامضة محددة الهوية.. وتلك المتعلقة بعلاقة الأنثى بالرجل، دفعت الدم الحار إلى وجنتيها.

ـ إذن.. ماذا تقترحين؟

كان صوته هادئاً تخللته رجفة سببها صدى الصوت في الكهف.

ـ أوه.. يا إلهي! لست أدري! إنها رائعة! من غيري أنا زار هذا المكان؟

كانت تتشوق لأن يقترب منها مع تدفق المشاعر الحساسة في جسمها وكأنها السحر.. أليس من المفترض أن تعني هذه الرسومات سحر الحب؟ وهبّت ريح خفيفة عبر مدخل الكهف، لتضيف أصواتاً عميقةً ناعمةً، تذكر بتمتمات الصلاة.. حركت الريح الرمال على الأرض، فرأت عليها نماذج رقيقة غير عادية.. وعناكب ضخمة. إنها آثار أقدام على الرمل الناعم، بما فيها أقدامهما.

قال غرانت بصوت خشن: «حوالى المئة فتاة».

استدارت إليه بسرعة، وسألته: «كلهن وقعن في حبك؟».

كانت تدرك أنها أول امرأة من خارج العائلة، باستثناء ابنة عمتها آلي، تأتي إلى هنا.

قال: «أنا لم أقع في الحب في حياتي، إلاّ في حبك أنت».

كان اعترافه خشناً، وتملكه التوتر. أمّا فرانسيسكا فاضطرت للسعال لكي تنقّي حنجرتها، ثم سألته:

ـ وهل هذا محرم؟

ـ إنه كذلك.. فرانسيسكا.

ارتفعت يدها إلى صدرها، وسألته: «أتعنى أن لقبي سيكون عبئاً رهيباً؟».

ـ لقبك هو أصغر جزء من المسألة.. وما يعنيه اللقب أهم.. لكن الأمر يتعلق بنقل شخص رقيق مثلك إلى هذا التراب الأحمر المتوهج.. وستكون معجزة أن تعيشي هنا.

جاء ردها مرتجفاً: «إذن.. الحب ليس كافياً؟».

تأوه، وقال: «فكري بالأمر فرانسيسكا، أتوسل إليك.. الوقوع في الحب عذاب.. يسمح للمرأة بأن تصل إلى ما هو أبعد من العقل والجسد، وسيعطيك هذا كل القوة في العالم».

نظرت إليه بعينين لامعتين، وقالت: «إذن.. لم يحدث هذا بعد؟».

حذرها: «لن أترك هذا يسيطر على أفضل ما عندي فرانسيسكا».

أخذ قلبها يضرب بسرعة، إلى درجة الألم، وسألته:

ـ إذن.. أنت تعتقد أن القوانين تنطبق على أشخاص مثلي، ولن تكسرها؟

رفع كفيه إلى الأمام، وكأنه يحاول إبعادها.. مع ذلك كانت عيناه تجذبانها إليه.. وقال:

ـ لا تنظري إليّ هكذا!

ـ أتظنني أردت لهذا أن يحدث؟

هز رأسه، وأجاب: «لا يمكنك فعل هذا، لأن كل شيء يحدث فجأة.. منذ سنوات بعيدة، وأنت مراهقة حلوة صغيرة».

ـ كنا قريبين من بعضنا يومذاك.

وانعكس الحنين في صوتها. لكن صوته بدا مليئاً بالأسف، وهو يقول:

ـ أولسنا أقرب الآن؟

ـ لكنك تريدني أن أبتعد؟

ـ كما هي الأمور..

وصمت.. مرتبكاً بشدة. فمن ناحية كان يحاول أن يقوم بالشيء الصحيح، ومن ناحية أخرى يكاد يجن ليأخذ هذه المرأة بين ذراعيه.. لقد وصل الأمر إلى نقطة لم يعد يتصور فيها الحياة من دونها.. ولم يشأ أن يحصل هذا أبداً.

أطلقت صرخة صغيرة أجفلته.. ثم رمت بنفسها إلى الوراء مع خروج سحلية صغيرة ملونة من الرمل، مخلوق صغير خائف لا

يؤذي.. ومرت السحلية بسرعة فائقة على قدم فرانسيسكا إلى خارج الكهف.

- يا إلهي فران.. تعالي إلى هنا.

وأمسك بها وهي تقع على الأرض الرملية، ثم أضاف: «إنها مجرد سحلية.. لن تؤذيك».

لكنه، قادر على إيذائها. رائحة جسمها، ذلك العطر الوردي الفريد من نوعه، فاح في كل مكان.. ولطالما فكّر باحتضانها، وها هي الآن بين ذراعيه.. خفيفة كالريش، وجميلة جداً.

ضحكت ضحكة صغيرة، وتلعثمت قائلة:

- أنا آسفة.. آسفة.

ضمها إليه بقوة.. واختبر شوقاً دفعه إلى أن يشدّ عليها بشراسة، وحرارة.. وكأنه انتظر هذه اللحظة طوال حياته.

كان يحترق ببطء، فصرخ: «فرانسيسكا!».

ارتفعت أصابعها البيضاء إلى شفتيه، وقالت: «لا تتكلم.. لا تتكلم أبداً».

ما كان يخشاه بالضبط، يحدث الآن.. أراد أن يعانق.. هذا المخلوق الجميل.. كان يعرف أنّ عليه أن يتراجع.. لكنه لم يفعل، لأنه لم يستطع استجماع ما يكفي من الارادة ليتراجع.

عجباً.. كان عناقها رائعاً.. وهو متأكد تماماً ممّا شعر به.

راح يحدق في وجهها الجميل.. كانت عيناها مغمضتين، ورأسها محني.. وشعرها شلالات من الحرير على كتفيها.

تمتم: «فرانسيسكا.. فرانسيسكا».

إنها فريدة.. لم.. لم يتصور أبداً أن امرأة قد تكون بهذا الجمال.. وأراد أن يعترف لها بمدى حبه وشوقه.. أراد أن يحفر

كلماته كعلامات لا تزول، وتبقى في قلبها إلى الأبد.

وتصورها تحمل ولده.. ولده الجميل.. صبي أم بنت لن يكترث.. سيرث ابنه بدون شك الشعر الأحمر الذهبي.. ستلد مخلوقاً بريئاً رائعاً.

لكن تفكيره بهذا الطفل، أعاد إليه عقله... كانت ذراعاها النحيلتان البيضاوان ملفوفتان حول عنقه.

كان تردده مؤلماً وكأن تشنجاً قد أصابه.. لكن بقوة إرادة هائلة، تمكّن من أن يبتعد.. وأن يسيطر على الجيشان المؤلم في داخله.

قال يحثها بلطف: «فرانسيسكا.. أرجوك.. تعالي».

لكنها أبقت عينيها مغمضتين..

فقال متوسلاً: «أتظنين أن هذا سهل علي؟ هذا أكثر قسوة مما تتوقعين.. لكن يجب أن نتصرف بوعي فرانسيسكا».

أخيراً أظهرت ردة فعل إذ هزّت رأسها، وسألت: «لماذا؟».

- كيف يمكن لك أن تسألي؟ ألا تأبهين لما قد يحدث؟

جلست على الفور.. تشد على أسنانها الصغيرة البيضاء، وأجابت: «لن أكترث لهذا».

- عليك أن تحتفظي بعواطفك لزوجك.

- اللعنة على هذا!

وكان عليه أن يضحك.. ولو ضحكة اصطناعية. وقال: «يعجبني هذا.. لأنه أمر غير عادي هذه الأيام».

أشاحت بوجهها وقالت:

- إنه خياري.. وأنا لم أهتم قبلك بأي كان، بما يكفي لأفكر فيه كزوجي.

أمسك وجهها بين يديه، وقال:

- إذن مهما حدث، جزء منك سيبقى لي دائماً.

زحف احمرار وردي إلى خديها.. وتأملت الكهف الصامت، لتقع نظراتها الزرقاء على الرسومات القديمة.. وحاولت المزاح:

- أعتقد أنك كنت تنتظر تصرفاً أفضل مني؟

- أنا المذنب فرانسيسكا.. لقد حاولت اغواءك.

- لكن إرادتك قوية.

- قد تشكريني بعد سنة.

ونظر إلى وجهها بحدة، ليسجّل كل ذرة منه في ذاكرته.

هزت رأسها بحزم، تدفع شعرها الطويل من فوق كتفيها:

- لا أظن ذلك.. ولن أندم على أي لحظة أمضيتها معك غرانت كاميرون.. فما أشعر به نحوك عظيم جداً.

* * *

٤ ـ نقاط مشتركة

في الأيام التالية، أرهق غرانت نفسه كثيراً في العمل ممّا جعل برود، يشعر بالقلق.. لم يكن الأمر يتعلق بصحة غرانت فهو قوي جداً، وأعصابه من فولاذ.. لكن بدا لبرود أنه يرهق نفسه كثيراً. وكان لشركة طيران كاميرون الآن ما يكفي من طيارين كفؤين يتمتعون بالخبرة الكافية ليتولوا أعمال جمع القطعان الكبيرة بأنفسهم.. لكن غرانت كان يرهق نفسه كثيراً، فيعمل يوماً بعد يوم حتى الغروب، بالرغم من المخاطر، خاصة بالنسبة إلى طيار طوافة يناور في ظروف صعبة.

كان هناك تيار خفي في كل هذا.. وإن برود لواثق من هذا.. فرانسيسكا.. لقد وقع غرانت في حبها.. لكن بدا جلياً لكل من يعرف غرانت جيداً، أنه يبالغ بالعمل. وبدا أن غرانت يعيش خوفاً حقيقياً من أن يؤلمها ويؤلم نفسه اذا ما تطورت علاقتهما.

ما حدث يوم أخذ غرانت فرانسيسكا إلى الكهف، شكّل مفصلاً هاماً في علاقتهما، ولقد أفضى به كلاهما لبرود الذي فهم كل شيء... استشفّه من البراءة المشعة على وجه فرانسيسكا.. لكن لا بد أن شيئاً مأساوياً قد حدث.

عندما كان الرجال يحتسون الشاي بعد الظهر، أخذ برود غرانت جانباً، وسأله: «لماذا لا نذهب إلى هناك؟».

وأشار إلى جذع شجرة بدا وكأنه مقعد كبير.

لحق غرانت به ممتناً.. ووجد نفسه مرهقاً، وهو الذي نادراً ما يتعب.

دخل برود صلب الموضوع مباشرة: «إذن، ماذا ستفعل غداً؟ هل ستأخذ وقتاً للراحة؟ يبدو لي أنك تعمل بسرعة مفرطة».

نظر غرانت إليه شذراً: «لن آخذ فرانسيسكا لزيارة شيء، إذا كنت تعني هذا».

سأل برود بصراحة مماثلة: «وما المشكلة؟ ألا تحبان بعضكما؟».

تمتم غرانت بشيء من العذاب: «يا إلهي.. الحب! وما هو الحب؟».

- يمكن أن أقول إنه ما تشعر به.. أنت لست واقعاً في حب ابنة عمتي فقط.. بل أنت متيم بها فعلاً.. وتعذب نفسك بالشكل الذي تعتبره ملائماً.

بدون أن يبتسم، سأل غرانت: «وهل يبدو علي هذا؟».

- يا للسماء غرانت.. عرفتك طوال حياتك.. وأعرف ما هي مشاعر الرجل حين يواجه القرار العاطفي الكبير.. وأعرف أنك رجل مستقيم، وأعرف أنني أستطيع أن اثق بك مع فرانسيسكا، وأعرف أنك لن تؤذيها عمداً.

أشار غرانت بقلق: «لست مناسباً لها برود».

كاد برود يصيح: «لماذا؟ الكل يجمع على أنك شاب مميز.. ولك مركزك في المجتمع هنا.. وهذا ليس من السهل اكتسابه».

ضرب غرانت على صدره، وقال: «هنا.. هنا.. أنا قلق.. لو كانت أي فتاة أخرى! أنا أريدها بقدر ما يمكن لرجل أن يريد امرأة.. لكنها كمخلوق من كوكب آخر، حتى لون بشرتها يخيفني».

هز برود رأسه.. حائراً بين عدم التصديق وعدم الفهم.

- غرانت.. كان لوالدك شعر أحمر وأمك كانت شقراء جداً.. أنظر إليك وإلى راف، ألا تدعوكما كل الفتيات بالشابين الذهبيين؟

نظر غرانت إلى شعر ذراعه المتوهج، وأجاب: «لقد تكيّفنا على مرّ الاجيال.. كبرنا ونحن قساة، أصبحنا من المحليين. لكن فرانسيسكا مثل النبتة الدخيلة النادرة، ما من أحد يتمتع بعقل سليم ويزرعها هنا، لن تستطيع العيش.. الحر الكبير قادم.. وتعرف مثلي أن الحرارة قد تصل إلى ثمانٍ وأربعين درجة!».

نظر برود إلى السماء الزرقاء الصافية كعين الديك..

- نحن لا نتوقع من نسائنا أن يخرجن في شمس منتصف النهار.. لقد تغيرت الأزمنة كثيراً.. ولدينا الكثير الآن، الكثير مما يساعد ولم يكن متوفراً من قبل، إنها ثورة التكنولوجيا.

- ربما.. لكن الواقع يبقى أن لا أحد سيتمكن من تغيير الصحراء.

- إن اردت رأيي.. لا أريدها أن تتغير، أحب بلادي كما لا أحب أي مكان آخر في العالم.

رد غرانت بحرارة مفاجئة:

- لا تُسيء فهمي. فأنا أحب بلادي كذلك. لقد تعلمنا أن نحبها.. نحن نعيش فيها.. لكن فرانسيسكا شخص مميز جداً.. وأنا مصمم على حمايتها.

حذره برود: «اللعنة غرانت! لو استمريت على هذا فستدفعها إلى الابتعاد.. وستخسرها.. فهل أنت مستعد لتخاطر بهذا؟».

ازدادت تعابير وجه غرانت الوسيم تصميماً:

- أفضّل أن أخسرها الآن على أن أخسرها فيما بعد.. فهذا سيقتلني.. ماذا لو تزوجنا وأحست يوماً أنها اشتاقت لكل شيء فقدته؟ لكل شيء عرفته وفهمته؟ إنها ليست فتاة عادية!

ـ فتاة عادية لن تناسبك غرانت . . هل فكرت بهذا؟

هز غرانت رأسه: «لا أعرف أي فتاة تتحدر من أصل مثل أصلها . . بالتأكيد لا يمكن أن تكون مختلفة عنا؟».

بدت السخرية في صوت برود: «إذن أنت لا تظن أنها راشدة بما يكفي لتتخذ قرارها بنفسها؟».

ـ وهل تدرك أن أي ابن قد ترزق به يمكن أن يكون وريث أبيها؟

ابتسم برود ابتسامة شاحبة، وقال: «وماذا في هذا؟ حسبما أعرف يواجه والد فرانسيسكا المصاعب وهو يحاول صيانة «أورموند». ولا بد أن المصاريف تشل الحركة . . خاصة من دون مال «في» . . وهي كانت الوريثة، ولا تزال».

سأل غرانت: «ألا ترى شيئاً خطيراً جداً في علاقتنا؟».

وأدرك أن هذا الحديث يتجه بطريقة ما إلى إراحة باله.

وأخذ برود وقته ليرد . . ثم قال بجدية من أعماق روحه:

ـ أعتقد أنك حين تجد شخصاً تحبه حقاً، لن تتركه يبتعد عنك أبداً.

* * *

راح غرانت يخطط لمنزل أحلامه . . سيحتاج بالطبع إلى مهندس ليكشف على الموقع، ويدرس المكان الصحيح لتأسيس المنزل. بالرغم من تصوراته كان تشييد المنزل بمثابة تحدٍّ له وتراءت أمام عينيه أحلام يقظته وكأنها تتحقق فعلاً. أراد أن يبني المنزل على شكل أبراج منخفضة مثل أوبال، وأن تكون الشرفة واسعة لتحمي داخل المنزل من الحرارة والشمس، وتوفر في الوقت ذاته ظلاً عميقاً ونسيماً بارداً.

كان يرى في كل غرفة فرانسيسكا، مهما حاول أن يتصور امرأة أخرى.

الله يشهد أنه يعرف الكثير من الفتيات الجذابات، اللواتي يحضرن مباريات البولو. وفي وقت من الاوقات أحس بالسعادة مع جيني آرڤين . . ابنة توم آرڤين، مربي الماشية المعروف، وصديق والده. وجيني جميلة، ومثقفة، ومرحة. وكان يعرف أنها سترضى به زوجاً، وأن والديها سيكونان سعيدين حقاً بهذا . . لكن فتاة اسمها فرانسيسكا دوليل، وضعت حداً لكل هذا. ومع حلول عرس برود، عرف أن فرانسيسكا سرقت قلبه.

كانت كالعطر الذي لا يقاوم . . . كل تلك الإعلانات السخيفة التي شاهدها حول العطر وطريقة أسره للرجل، لم تكن سخيفة في نهاية المطاف. فرانسيسكا وردة وبالنسبة اليه تفوق الزهور كلها جمالاً، وعطراً.

حتى في أحلامه حول المنزل الذي يريد أن يبنيه، كان يرى فرانسيسكا بوضوح على مائدة الفطور تتناول فنجان قهوة معه. وفرانسيسكا في غرفة الطعام تلعب دور المضيفة للعائلة والأصدقاء، وفرانسيسكا في غرفة المكتبة تقرأ من فوق كتفه وهو يكتب رسالة هامة، ويرحب بما تضيفه عليها لأنه يحترم رأيها الجيد بالأعمال . . وأكثر من أي شيء آخر، كان يراها في غرفة النوم مستلقية على فراشهما الضخم . . سرير حديث مغطى بالستائر البيضاء منعاً للحشرات التي قد تدخل عبر الأبواب المفتوحة . .

يا لك من غبي! عند هذه النقطة كان ينبّه نفسه دائماً . . الوقوع في حب فرانسيسكا نعمة وقنوط . . مصيرها مكتوب مثل مصيره، ولا دخل للأحلام بالحياة الحقيقية . . هذا هو الواقع الذي لا يتغير . . إنه يتبع الخيال ويتجه نحو الكارثة. على الحب أن يقترن بعوامل أخرى لكي يدوم الزواج.

فرانسيسكا جميلة، مخلوقة رائعة، يحميها والدها بحذر. ويبدو جلياً أنها ولدت لتعيش حياة ترف.. فكيف له أن يستبقي مثل هذه المرأة في العزلة؟ يمكن للقطبين المتجمدين أن يذوبا قبل أن يتعب منها، لكن ماذا لو وجدت طريقة حياته موحشة وبعيدة عن كل ما عرفته؟ وبالرغم من حديثه مع برود، لا يزال متأثراً بالضغوطات المفروضة عليه كرجل سيتخذ قراراً يؤثر على حياته بأسرها.

وأدرك، من دون جهد، أن والد فرانسيسكا سيعارض هذا الزواج. ولِمَ لا يفعل؟ سيأخذ منه طفلته المحبوبة، سيصحبها إلى الجهة الأخرى من العالم. وسيدمر هذا مخططاته.. وكانت «في» قد اعترفت بهذا.. وهكذا استمرت المشاكل تلاحق حماسته.. يبدو أن النساء وُلدن ليقمن بقفزات كبيرة في المجهول. أما الرجل فعليه أن يحافظ على قدمه ثابتة.

وصل فريق عمل الفيلم في عطلة الأسبوع. أقاموا في كيمبارا، التي كانت بغرفها المتعددة تناسب سكن الضيوف أكثر من أوبال. «نغاير بيل» المخرجة النيوزيلندية المولد، والتي تؤسس لنفسها اسماً عالمياً لامعاً، يرافقها مساعدها وكاتب السيناريو «غلين ريتشاردز».. وبقي غرانت مشغولاً طوال يوم السبت، يحضر للأعمال القادمة، ويتفحص صيانة الطوافات، ويدبر أمر المواصلات الجوية، مما أبقاه في أوبال.. لكن مع غياب الشمس حط في كيمبارا لمقابلة ضيوف برود وريبيكا على العشاء.

وكانت فرانسيسكا هناك لتحيّته، وهي ترتدي بنطلون جينز وقميصاً أصفر. بدا شعرها وكأنه اللهب في نور المغيب.

انحنى يقبل خدها، وهو يقول: «مرحباً.. جميل أن اراك!».

وفكر في أن كلمة جميل سخيفة.. إنه يشعر بالإثارة المطلقة

لرؤيتها، فهي تجعل قلبه ينبض بسرعة وبحرارة.

ردت: «من الجميل أن أراك كذلك، كان أسبوعاً طويلاً».

تكلم بعفوية: «كان لدي أشياء كثيرة أقوم بها».

لكنه لم يقل لها إنه وجد البعد عنها شاقاً، وسأل: «إذن كيف هم الضيوف؟».

رمى حقيبته الصغيرة على المقعد الخلفي للجيب والتي قادتها فرانسيسكا بيدين صغيرتين قادرتين وواثقتين.

أدارت إليه رأسها نصف ضاحكة، وأجابت: «ستعجب بهما، نغاير امرأة مثيرة للاهتمام.. هي وفي متفقتان.. غلين رفيق جيد كذلك.. هو وريبيكا لديهما أشياء مشتركة».

ـ وماذا عنك؟

قالت بعينين مضطرمتين: «أنا سعيدة.. سعيدة حقاً، كلنا متفقون جيداً. لكن، بالتأكيد، الآخرون لديهم اهتمامات مشتركة خاصة بهم».

ـ كم عمرها.. يا ترى؟

لكنه في الواقع كان يريد ضمها بين ذراعيه.

ـ نغاير في أواخر الثلاثين، أوائل الأربعين. طبعاً لم أسأل.. غلين يمكن أن يكون في الخامسة والثلاثين.

ـ متزوج؟

يريده أن يكون متزوجاً دون أن يواجه السبب.

ـ كلاهما غير متزوج.. إنهما صديقان عظيمان، وزميلان. لكنني لا أعتقد أنهما عاشقان. بالطبع يمكن أن أكون مخطئة.. أنت لم تعانقني.

لأنني إذا عانقتك لن أتوقف.

ـ قبّلت خدك.. ألم أفعل؟

قالت وهي تتفحص السماء: «أجل.. فعلت، وكانت قبلة لطيفة كذلك، كم أن المغيب مهيب هنا».

قاوم ملامسة شعرها، وهو يقول: «مثل شعرك.. إذا أردت رؤية منظر رائع، أخرجي عن الطريق الآن واتجهي إلى الشمال الشرقي، مسافة ميل تقريباً.. سيتجه الأوز الأسود إلى مأواه عند المغيب».

ـ إذن، كيف سنتجه؟ وأين هو الشمال الشرقي؟

ـ دعيني أقود.

توقفا لتبادل الأماكن.. غرانت في مقعد السائق، وفرانسيسكا إلى جانبه.

ـ إلى كينغورا، لا بد أنك تعرفينها.

انطلق الجيب. فنظرت إلى وجهه الذهبي، وسألته:

ـ بحيرة كينغورا؟

ـ هي ذاتها.. وكينغورا تعني الأوز الأسود، أكنت على علم بهذا؟

هزت رأسها نفياً: «لا.. هناك الكثير لأعرفه.. وسيلزمني العمر كله.. حتى أتعلّم كل الأسماء الأصلية».

ـ إنها أفضل ما أحب، أخوتنا من السكان الأصليين كانوا الحراس القيمين على هذه البلاد لأكثر من ستين ألف عام. وكينغورا بحيرة قديمة جداً، واحة حقيقية للحياة البرية.

ـ طبعاً.. لقد رأيتها.. إنها مذهلة جداً، خاصة أن المنطقة من حولها جافة مجدبة.

مال نحوها وتعابير وجهه تظهر سعادته بمشاركتها الموضوع.

ـ أصغي الآن.

حمل نسيم المساء أصوات الطيور إليهما.. وظهرت الظلال السوداء لآلاف طيور الأوز الأسود التي تطير في السماء الليلكية القاتمة

الملطخة بالأحمر البراق، والذهبي والقرمزي، تلك الألوان التي تميز مغيب الصحراء.

رفعت فرانسيسكا رأسها، وعلّقت: «يا له من منظر!».

وحدقت مذهولة بالريش الأبيض في أسفل أجنحة الطيور الآبنوسية.. في العنق الفيروزي، والمناقيد الحمراء.. وفي انحناءة أعناقها الجميلة.

قال غرانت:

ـ لدينا متسع من الوقت لنسير إلى الماء.

وزاد سرعة السيارة مبتعداً عن الأرض ذات الشجيرات المنخفضة الكثيفة متجهاً إلى البحيرة.

لقد سرقهما الوقت قليلاً، وقالت فرانسيسكا تشرح له: «قد يبدو هذا غير عادي.. لكنني نادراً ما أبتعد عن المنزل في مثل هذا الوقت».

واحمرت وجنتاها، وهي تضيف: «وإذا خرجت أركب الخيل أو أدور في السيارة حول الأملاك، يريدني برود في المنزل قبل حلول الظلام».

نظر إليها غرانت نظرة متوهجة، وقال: «أنا كذلك سأرغب في هذا لو كنت وحدك. فالليل يحل بصورة مفاجئة هنا وكأنه ستارة سوداء.. لكن هذا يستحق الرؤية.. وأنا معك».

أمسك بيدها أثناء نزولهما الطريق الرملية بهدوء.. وبهدوء شديد بقيا وراء الأشجار كي لا يزعجا الطيور.

كان هناك المئات منها! أسراب تسبح في البحيرة الفضية، بينما أخرى تطوف وكأنها طائرات تنتظر مكاناً لتحط فيه. بقيا على مسافة من أنواع متعددة لم تستطع فرانسيسكا التعرف إليها.. وعندما هبطت طيور الأوز، ضمت أجنحتها، وأحنت أعناقها الطويلة في انحناءة جميلة..

وبقي غرانت وفرانسيسكا معاً، تجمعها سعادة عظيمة بهذا المشهد الذي ألفه غرانت طوال حياته، وإن لم يمل منه يوماً.. والذي سحر فرانسيسكا.

البراري هنا هي الطيور.. وكانت فرانسيسكا تعشق مراقبة طيران أسراب الببغاء الأوسترالية، والأوز البري، ومالك الحزين الأبيض الذي يغطي الأشجار.. لكنها لم ترَ من قبل مثل هذا العدد من الطيور المائية مجتمعة في مكان واحد. بدا المكان وكأنه ميناء رائع.

همست: «هذا رائع!».

احنى رأسه فوق رأسها، وأحست بأنفاسه حارة على أذنها، وهو يجيب: «نعم، أنه كذلك».

ـ شكراً لك لأنك اصطحبتني إلى هنا.

ـ أنا مندهش كيف فاتتك رؤية المكان في زياراتك.

لم تكن الزيارات كثيرة.. وتذكرت هذا نادمة. لقد جاءت أول مرة إلى كيمبارا وهي في العاشرة. ولم يكن والدها يرغب في ذلك.. قال لها إن أوستراليا بلاد بعيدة.. غريبة.. وقال لها إن أهل أمها يعيشون في الصحراء، وإنهم بالكاد متمدنون.. مع ذلك، كانت أمها أكثر مخلوق جميل وفاتن رأته في حياتها.

حين وصلت إلى كيمبارا، شعرت بأنها في ديارها، لم تكن منجذبة إلى المكان لكنها سرعان ما أحبته.. وكأن روحها قد انفلتت من عقالها.. فهي فتاة صغيرة مستوحشة. وبالرغم من أن والدها حاول أن يفعل ما بوسعه لأجلها.. لكنه عندما خرجت من المدرسة الداخلية، تركها تفعل ما تشاء.

تمتمت بصوت مرتفع: «المجيء إلى أوستراليا كان أكبر مغامرة في حياتي.. ولا يزال هكذا».

سخر منها بلطف: «وماذا عن الحر يا حمراء الرأس الصغيرة؟».

ـ لا يمكن للحر أن يخمد إثارتي. ليس الآن.. ولا في أيّ وقت.. إنه حر جاف أليس كذلك؟ ليس حراً رطباً موهناً.

وكان هذا صحيحاً.. فلطالما بدت كالزنبقة.

قال بخفة: «حسن جداً.. أنا سعيد لتمتعك بزيارتك.. لكن من الأفضل أن نعود».

وانحنيا تحت بعض الأغصان المتدلية في طريقهما إلى المنحدر، وكانت فرانسيسكا تسير إلى الأمام بخطوة مرحة.. وكادا يصلان إلى القمة حين أمسكها غرانت بحزم من الوراء، ولف ذراعه على خصرها، ليوقفها.

ـ ما الأمر؟

رفعها عن الأرض، بذراع واحدة وكأنها لا تزال في العاشرة من عمرها.

لم يرد عليها للحظات، ثم أنزلها مرة أخرى بدون اكتراث.

ـ لا شيء!

اضطرت إلى الاستناد إليه وهي تقول: «لقد أخفتني».

ـ هذا أفضل من أن أتركك تدوسين على أفعى، ها هي هناك.. قرب الصخور.

صاحت بصوت زاد الخوف من حدته، وهي تلتصق به: «يا إلهي!».

قال لها: «إنها غير مؤذية.. كانت تحاول قطع الطريق. الأفاعي تهرب من الإنسان عموماً.. مع ذلك، لا ينفع أن ندوس على إحداها».

ارتجفت قليلاً، واستدارت بين ذراعيه لتضربه على صدره بقبضتها في ردة فعل غريزية على الخوف.

ـ أعتقد أنك تظنني سخيفة؟

لف يده حول معصمها وتحسس العظام الرقيقة.. ثم نظر إلى عينيها، اللتين بدتا وكأنهما تنظران إلى أعماقه:

ـ لا.. بل أظنك شجاعة جداً.. وأنا آسف لأنني أخفتك.

همست: «لست خائفة.. فأنا هنا معك».

وخاض معركة عنيفة في داخله، لكنه خسرها. وأخفض رأسه دون وعي ليعانقها، بشوق وجوع.

يا إلهي.. أحبها! وترك نفسه يضيع في نشوة عارمة.. لماذا لا يفكر بهذا فقط بدل أن ترعبه الفروقات بينهما.

تمتم حين وجد القوة لإفلاتها من بين ذراعيه: «على الأقل.. لدينا شيء مشترك».

وتمكنت من النطق بكلمة واحدة: «الكثير!».

بعد لحظات تمكنت من فتح عينيها وأكملت بتوبيخ ناعم: «لدينا الكثير من الأشياء المشتركة.. لا تبعدني عنك غرانت».

لم يشاهدها جادة هكذا من قبل، وأضافت: «لطالما تمّ إبعادي».

وهربت منه راكضة، لتتركه كثيباً، يحدق بها.

لطالما تمّ ابعادها! كيف يمكن لهذا أن يكون صحيحاً؟ فوالدها يحبها كثيراً، ولديه خطط كبيرة لها. و«في» هي «في».. صحيح أنها لا تتمتع كثيراً بحسّ الأمومة.. لكن من الواضح جداً أنها تحب ابنتها الجميلة.. صدمه أن تشعر فرانسيسكا بالهجران، فأحس وكأنه تلقى ضربة قاسية.. إنها معجزة، تلامس دماغه، جسده، قلبه، برشاقتها الرقيقة.

دخل الجميع إلى غرفة الاستقبال الكبيرة، لتناول المرطبات قبل العشاء.. وقدّم برود غرانت إلى الضيوف.

قال برود: «أهلاً بكما في كيمبارا.. نغاير، غلين.. غداً ستريان أوپال، منزل أختي آلي الجديد.. ولا بد أن تنال اعجابكم، سترون. في طفولتنا كانت أوپال منزلي ومنزل آلي الثاني».

ابتسم غرانت ابتسامة مضيئة، وعلّق: «في الواقع، كلنا مقربون جداً.. والآن نحن فعلاً عائلة واحدة.. أسرة كاميرون وكينروز، اتحدتا أخيراً».

قالت نغاير: «هناك نوع من السحر في قصصكم.. سلالتان من الرواد الأوائل.. أتشوق لقراءة قصة حياتك «في»».

قالت «في» بصوت عميق مغري: «لا تقلقي حبيبتي.. أنت وغلين مدعوان إلى حفلتنا الخاصة.. كانت فكرة فران حول اختيار أوپال للمناظر البرية رائعة.. راجعت قصة «المهاجر» ليلة أمس، والمزرعة ممتازة».

هز غرانت رأسه، وقال: «لقد قرأت القصة أيضاً.. واستمتعت بها.. مع بعض التغييرات البسيطة سيكون المنزل رائعاً. وأنتما محظوظان لأن آلي لم تبدأ بعد بتجديد الأثاث. كانت أمي تنوي القيام بهذا، لكن الفرصة لم تتح لها».

تمتمت نغاير: «أنا آسفة غرانت.. بشأن والديك ولكنني أتشوّق لزيارتها غداً».

قُدم الطعام الذي اهتمت ريبيكا، وفرانسيسكا بتحضيره قبل وصول الضيفين، ودار الحديث حول مواضيع مختلفة: السينما، حياة البراري، شهر عسل راف وآلي ما وراء البحار، السياسة المحلية، والعالمية، قليل من الشائعات.. الكتب التي لم يسهل عرضها في السينما.

وشارك الجميع باهتمام في الحديث ولا سيّما «في» التي تكلمت

بمرح . . وراح دايفد ينظر إليها، فبعد سنوات، جاءت «في» لتملأ قلبه فرحاً.

بعد أن انتهت هذه الوجبة الرائعة، اغتنم غلين الفرصة ليقول ما كان يفكر به في الساعتين الأخيرتين:

ـ إن مشاركتك ضربة موفقة ڤيونا، ستعطين الدور وجوداً ومصداقية. . لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأن ابنتك الجميلة فرانسيسكا ستكون رائعة في دور «لوسيندا».

انفجرت نغاير: «هاي. . هذا مذهل!».

قالت «في» بلهجة قاطعة: «فران لا تمثل يا غلين. . لم تتدرب على التمثيل يوماً. وآلي هي الممثلة الأخرى الوحيدة في العائلة».

قال غلين: «وهي ممتازة كذلك».

لوحت نغاير بيدها، وقالت: «التدريب مهم طبعاً «في». . لكن بعض الناس يمثل بشكل طبيعي. الفتاة التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها والتي ظهرت في فيلمي الأخير، بدت ساحرة. . أتت من المدرسة مباشرة، وتعلمت فن الدراما وفن الكلام».

نظرت «في» حول الطاولة. . وبدا جلياً أنها لا تستطيع تصور ابنتها كممثلة:

ـ لكن فران لا تهتم بالتمثيل. . أليس كذلك حبيبتي؟ إنها تفضّل الرسم والموسيقى. وهي بارعة في الاثنين. . وفرانسيسكا خريجة مدرسة جيدة.

أدار غرانت عينيه الجميلتين إلى فرانسيسكا معلّقاً: «لم أكن أعرف هذا».

قال برود: «الآن وقد استقرّينا هنا سأشتري بيانو جيداً».

ابتسمت فرانسيسكا له، وقالت: «فليكن من طراز «ستينواي»».

قال برود جاداً: «حسناً، وأعرف كذلك أنك ترسمين جيداً».

أصر غلين: «وماذا عن التمثيل؟ لا بدّ أنك كنت تشاركين في المسرحيات في مدرستك؟».

هزت فرانسيسكا رأسها، وأجابت:

ـ بالطبع، وقد تذهل أمي. . لكنني كنت بارعة جداً. وقمت بالعديد من الأدوار لشكسبير. . وأهمها جولييت أمام صديقي فيليب الذي لعب دور روميو. . من المؤسف أنك لم ترينا.

ـ ولماذا لم أرك؟

تمتمت فرانسيسكا وهي تدير عينيها: «أوه. . أمي».

ـ أتعنين أنني لم أكن موجودة؟

قال غرانت باقتناع: «الآن بعد أن فكرت بالأمر. . تستطيعين لعب دور لوسيندا».

تمتمت نغاير: «أوافق».

نظرت «في» إلى نغاير وسألتها: «هل تعتقدين حقاً أن فران قادرة على القيام بالدور؟».

قالت فرانسيسكا: «أرغب في ذلك».

نظرت «في» إلى نغاير مجدداً وكأنها جنت.

ونظر غرانت إلى فرانسيسكا قائلاً: «أعرف أنك قادرة على القيام بالدور. . وسيكون هذا جيداً لك. . قليل من المرح، وضمن آفاقك».

قالت «في» وكأن غرانت اقترح اقتراحاً مشيناً: «بالتأكيد حبيبتي. . لن تفكري بالتمثيل كمهنة؟».

هزت فرانسيسكا رأسها بثبات، وأجابت: «لا أمي. . لن أفكر به. والأمر كما يقول غرانت، شيء من التمثيل وقليل من المرح».

ابتسم غرانت. . يشجعها متحدياً: «إنه تحدٍ. . أنت مليئة

بالمفاجات فرانسيسكا، أودّ أن أسمعك تعزفين على البيانو».

وعده برود: «وسيحصل هذا.. كان لدينا بيانو كبير تعزف عليه أمي بشكل جميل، لكن أبي تخلص منه، ولم يسمح لآلي بأن تتعلم.. بالرغم من أنها أرادت ذلك».

تمتمت نغاير: «لا بد أن هذا كان مؤلماً».

تابعت «في» اعتراضها: «لكن لديكما تلك المتخرجة حديثاً.. ما اسمها.. بياج أو ما شابه؟».

قال غلين: «بياج ماكولي.. أجل.. بياج كانت جيدة في التجارب. لكننا لم نتخذ قراراً نهائياً.. أليس كذلك نغاير؟».

ـ أعتقد أننا اتخذنا القرار يا عزيزي، لكنني أشاركك تماماً وجهة نظرك حول دور لوسيندا.. بإمكان المرء أن يرى فرانسيسكا فعلاً في هذا الدور.

قالت فرانسيسكا: «سأقتل باكراً.. وسأجد الموت بشكل رائع.. أوليس هذا ما يفترض بي القيام به؟ أموت في بلاد جديدة غريبة؟».

ابتسم غلين: «بالطبع، شخصيتك ليست قوية.. وجسدياً تبدين ضعيفة، وحساسة».

ورأت فرانسيسكا نفسها فعلاً كزهرة ضعيفة فقالت: «راقصات الباليه ضعيفات المظهر جداً.. لكنهن قويات.. ويجب أن تعرف أنني ألعب التنس جيداً، كما أنني بارعة برماية السهام، وأنا قارئة ماهرة.. أليس كذلك يا برود؟».

وتوسلت إلى ابن خالها الذي يساندها دائماً، فقال موافقاً:

ـ كما أنها تجيد ركوب الخيل. إن مظهر المرأة قد يعطي فكرة خاطئة عن مدى قوتها.

أراد غلين أن يضع فرانسيسكا في جو الدور الذي سيقيها على

اتصال يومي معه:

ـ إذن، ما رأيك بقراءة الدور؟

احتجت «في»: «أظنك تتسرع، غلين.. لن يكون والد فرانسيسكا سعيداً جداً لوجود ممثلة أخرى في العائلة.. واحدة كانت أكثر من كافية».

ـ لكنه دور صغير أمي.

ـ أجل.. لكن قد تلتقطين العدوى.

كان من الصعب تكهن سبب انزعاج «في».. هذا ما فكر به دايفد.. هل تخشى أن تسبب لها فرانسيسكا بعض الحرج؟ لكنه لم يستطع رؤية كيف؟ أم هو خوفها من غضب دوليل؟

لم يستطع غرانت التكلم مع فرانسيسكا على انفراد إلاّ عند الساعة الحادية عشرة، حين اعتذر برود قائلاً إن لديه عمل في الفجر. واعتذرت ريبيكا كذلك بابتسامة ساحرة وتركت فرانسيسكا لتتابع الحديث، الذي اتجه إلى نقاش مفصّل حول الفيلم والشخصيات وما إلى ذلك.

وفكر غرانت في أنّ الآوان آن للإمساك بفرانسيسكا والهرب، وأحس بخيبة أمل ريتشاردز حين تركت الجمع المفتون وخرجت.

علّق غرانت بجفاء وهما يتنزهان قليلاً: «أظنك فزت بقلب آخر».

تجاهلت فرانسيسكا قوله وتحدثت في أمر يهمها حقاً: «لم تبدُ أمي سعيدة جداً باقتراح غلين».

قال غرانت، وهو ممتعض كذلك من «في»: «أعتقد أنك ستتألقين.. أنت فنانة نابضة بالحياة.. ولا أحب قول هذا، لكن يبدو أن «في» تفتقد الحساسية أحياناً».

اضطرت فرانسيسكا للموافقة: «ليست لبقة دائماً.. لعلها تعتقد

أنني سأصبح محط سخرية . . أو لعلي سأجعلها محط سخرية .

جذبها إليه، واضعاً ذراعه حول خصرها بخفة، وقال: «تودّين التمثيل . . أليس كذلك؟» .

وجدت فرانسيسكا راحة أكثر في صحبته، فأجابت: «أجل . . لكن ليس إذا فضّلت أمي ألاّ أفعل» .

ـ أنت فتاة كبيرة الآن .

ـ لطالما كرهت تكدير الناس .

حذرها: «لا تشعري بعقدة ذنب نحو «في» .

ـ إذن، ماذا تقترح أن أفعل؟

اشتدت ذراعه حولها، ورد: «لقد قلت لك . . قومي بذلك وسوف تستمتعين بالأمر» .

ـ وماذا لو أصابتني العدوى كما تظن أمي؟

ردّ بخفة، وهو يعتقد أن هذا غير محتمل: «اذا حصل ذلك فلا بأس، إنها حياتك . . لكن لا تبتعدي كثيراً . . فسأشتاق إليك» .

توقفت مسمّرة، واستدارت نحوه وقلبها يخفق بشدة، ثم قالت: «إذن . . لن تهتم لو أصبحت «في» أخرى؟» .

ـ لن يحصل هذا فرانسيسكا .

ولم يعد يحتمل، فأحنى رأسه ليضمها بحرارة بين ذراعيه .

ـ تذكّري الحديث الصريح من القلب للقلب الذي أجريناه حين كنا صغاراً . أنت تريدين بيتاً وعائلة، ورجلاً يحبك، رجلاً يشاركك حياتك . . وماذا طلبت أيضاً؟ أربعة أولاد . . هذا عمل بدوام كامل .

ضحك متعاطفاً، وقالت: «هذا لأني طفلة وحيدة . . كانت طفولتي تعيسة . . ولن أدع هذا يحصل لأولادي» .

وقادها غرانت إلى الأمام قائلاً: «ربما ما زلت بحاجة إلى تشجيع

أمك وموافقتها؟

ـ هذا أمر طبيعي . . أليس كذلك؟ هذا كل ما يأمله المرء، رضى الوالدين .

هز رأسه بحزن، وأجاب: «لطالما أحاطنا والدانا بالحب، راف وأنا، بينما عاش برود وآلي الجحيم . . لم أقدّر تماماً كم أن انفصال أبويك أثر فيك . لكن، ماذا عن والدك؟ هل سيعترض بشدة على أن تصبحي ممثلة، إذا تبين له أن هذا ما تريدينه؟» .

ـ في الواقع سيصاب بصدمة .

ـ لأن لديه خططاً كبيرة لك؟

طبعاً، وهذا واقع لن يتغير .

تمتمت فرانسيسكا: «لن تنجح خططه يا غرانت، إذا كانت معاكسة لخططي . . أنا لا أريد أن أخيب أمل والديّ، لكن، وكما أشرت لتوك، حياتي ملكي . وهذا ما يجعل إبعادك لي غريباً جداً» .

ـ بحق السماء فرانسيسكا، لم يكن هذا ما أعنيه أبداً .

ونظر إليها، فرأى بشرتها الجميلة تتحول إلى لون فضي تحت نور القمر .

وقالت بسرعة: «لكنك لا تتقبل فكرة أنني أعرف ما أريد؟»

كشر قليلاً وأمسكها بكتفيها ليديرها إليه، وسألها: «وماذا تريدين فرانسيسكا؟» .

ظهر لمعان الاحمرار على خديها، وردّت: «هل يُسمح لنا بأن نستخدم كلمة «حب» هنا؟ أنت تخفي الكثير الكثير» .

صدمته الحقيقة، وقال: «لن ننجح أبداً فقد أؤلمك فرانسيسكا . . أنا أحبك، وتعرفين هذا . . أنت تستولين على فكري وعقلي وأحلامي أيضاً» .

لم تستطع السيطرة على موجة الامتعاض التي اجتاحتها، فقالت:

ـ أنت تهتم كثيراً لأمري.. لكنك لا تأخذني على محمل الجد.

ـ هذا سخيف.. وتعرفين هذا.

ارتفع ذقنها، فقالت: «إذن، ربما هناك جزء منك لا يريدني، رجل مثلك قد يخشى خسارة حريته».

صدمته هذه الفكرة، وسأل بحدة: «ماذا تريدين أن أفعل؟ أتزوجك؟».

ـ أنا آسفة.. آسفة..

وأفلتت منه وهي تشعر بالإذلال.. أين كرامتها؟ هل هي مضطرة لإجباره؟

لحق بها يلف ذراعيه حولها، ويقول:

ـ فرانسيسكا. لم يخالجني هذا الشعور مع أي شخص آخر. أنا أريدك بجنون.. حتى أنني لا أستطيع فهم نفسي حقاً. ذلك اليوم في الكهف، كنت على وشك إفساد حياتك.. وحياتي. والمسألة ليست بالسهولة التي تعتقدينها، إنها أبعد من ذلك بكثير.

ـ ولن تدعني أتعلم؟

ـ أنا أحاول التفكير بما هو أفضل لنا معاً.. يا إلهي.. هل تظنين أنني أناني بحيث أحجزك في قفص؟

أفلتت منه مرة أخرى، وتحركت كالظل تحت الأشجار المتأرجحة:

ـ لا أريد سماع هذا.

وجدها بسهولة في العتمة المخملية، وقال:

ـ عليك أن تسمعي ما أقوله.. أنا أنظر إلى الزواج بجدية. أنا مثل الأوز الأسود.. سأتزوج لمدى الحياة. لو كنت من المستوى

الاجتماعي نفسه، لما ترددت لحظة. لكنك تربيت على حياة رفيعة المستوى.. هل تظنين حقاً أنني سأدعك يوماً تهربين؟ هل تظنين حقاً أنني سأتركك تبتعدين عني مع رجل آخر؟.

ظهرت الدموع في عينيها لقسوته.. ألا يعرف أنها تحبه؟.. قالت بسخط بارز:

ـ لا أعرف عما تتكلم.

تأوّه محاولاً السيطرة على هذا الموقف الذي أخذ يميل إلى الحدة بسرعة:

ـ لكن هذا يحدث فرانسيسكا.. ويحدث طوال الوقت. لا تستطيع أي امرأة أن تحتمل العزلة، ونقص التسلية، المسرح، الباليه، الحفلات الموسيقية، معارض الفنون، كل الأمور التي تعودت عليها.. ولا أظنك تحتملين الوحدة أثناء غياب زوجك. يجب أن أشير إلى هذه الأشياء، وإلاّ سأكون كمن يرسم صورة زائفة.

وبينما كان يتكلم، محاولاً تحذيرها، كانت سهام الرغبة تطعنه بحدة متزايدة. وعندما وقفت بالقرب منه وشعرها الطويل منسدل على كتفيها كالحرير خشي أن تخيفها مشاعره الشرسة.

فقال: «يا للجحيم.. أقبل بالمغامرة بكل شيء لأجل الحب إذا كنت مستعدة لدفع الثمن.. إذا تزوجتك، لن أتركك ترحلين.. ألا يمكنك أن تفهمي أن كل هذا الحب، هذا الهيام، خطير؟».

أحنت رأسها وهي تعرف أن مشاعرها نحوه لم تلّون عالمها وحسب.. بل قلبته رأساً على عقب.. هناك مرحلة ما قبل غرانت.. ومرحلة ما بعده، ماذا يخبيء لها القدر أكثر؟ مع ذلك استدارت عنه وهي تقول:

ـ لن أزعجك مرة أخرى.

تأوه بإحباط، وصرخ بصوت مرتفع: «فرانسيسكا!».

واحتار ما بين أن يضمها بين ذراعيه وأن يترك حبه يبرد.. الحب.. إنه أشبه بالقفز من فوق منحدر صخري. حاولت عبثاً أن تمزح:

ـ إن السقوط على الأرض والتحطم أمر محبط تماماً. أنت محق تماماً يا غرانت.. ليس لدينا ما يكفي من النقاط المشتركة. والأمور التي لا تُبنى على أسس صلبة من الثقة والأمل لا تتكلل بالنجاح أبداً.

* * *

٥ ـ الخطوة الاولى

في الأسبوع الذي انتقلت فيه أسرة الفيلم إلى أوبال، كان على غرانت أن يطير إلى «بريزبان» للقاء قرره مع درو فورسايت منذ مدة. سار اللقاء بشكل جيد ثم انقلب إلى نقاش مكثف لمدة ثلاثة أيام، بعد أن وجد فورسايت الوقت الكافي في برنامجه الحافل. وأحرز الرجلان نجاحاً باهراً، فهما من سلالة تتحلّى بالرؤيا والطاقة والطموح والذكاء. أثناء النهار، كان يتم بحث الصفقات والحصول على موافقة المستشارين الماليين، أمّا مساءً، فحرص درو وزوجته الجميلة إيف على أن يستمتع غرانت بوقته.

* * *

قالت نغاير: «لا تأتي دون علبة محارم ورقية».

وأخذت علبة لنفسها.. وتشجعت كثيراً بقدرة فرانسيسكا على كسب الإشفاق على الشخصية بدون أن ترسمها بطريقة منغلقة على نفسها. وأدّت فرانسيسكا دورها بشكل مثير للمشاعر، وبصدق يفوق صدق بياج ماكولي الموهوبة.

حتى (في) تأثرت، في الواقع، وذهلت بابنتها، غير أنها انزعجت لأن فرانسيسكا لم تطلب منها مراجعة الدور معها ولا سألتها نصيحة وهي الخبيرة في مجال التمثيل. وقال لها دايفد:

ـ لقد جلبت كل هذا لنفسك، فيفي. فرانسيسكا ترغب في أن تشارك.. دعيها تفعل.

* * *

بينما كان غرانت في بريزبان، قرر أن يغتنم الفرصة ليرى مهندساً بالنسبة إلى المنزل الذي ينوي أن يبنيه. ونصحه درو برجل ممتاز، وتم تحديد موعد معه. وكان أوپال وكيمبارا قد ظهرا في عدد من منشورات «المنازل التاريخية في أوستراليا». وحين وصل غرانت إلى مكتب المهندس تحدثا لفترة عن تأثير العائلة والإرث، والمزج بين الهندسة والبيئة، بينما راح غرانت يكشف عن التصميم الذي يريده.

قال المهندس وهما يفترقان: «أنا أتحرق شوقاً لزيارة المكان وسأسرّ بذلك! لا يحصل المرء دائماً على فرصة لتصميم منزل عائلي معاصر. لا بدّ أن غموض البراري موحي جداً، عندئذٍ سأكتشف فعلاً مدى موهبتي».

وفكر ماديسون في سره: هذا الشاب يشع طاقة.. وهو يعرف تماماً ما يريده.. وسيكون زبوناً مثيراً للاهتمام.

* * *

في أوپال.. لم تجد فرانسيسكا العمل السينمائي سهلاً كما توقعته، وبما أنها حديثة العهد كان أمامها الكثير لتتعلمه، حتى كيف تدير رأسها.. لكن نغاير، اليد المرشدة، كانت صبورة جداً معها، تقودها بثبات في المشاهد.. ولم تكن تلك المشاهد كثيرة، فقد اختفت لوسيندا باكراً. لكنها مشاهد هامة في القصة. خافت فرانسيسكا بسبب عدم خبرتها.. لكنها كانت تسعى دائماً لتكون جاهزة، مثلها مثل (فُي)، التي استمرت في إظهار ذهولها لهذا الجانب الجديد من شخصية ابنتها.

بدت نغاير مسرورة بعملهما، حتى أنها أصغت إلى ما حاولت فرانسيسكا إضافته على شخصيتها. إنها شابة صغيرة، لكنها تمتلك الشجاعة، تكافح لتعيش في عالم مختلف تماماً عن كل ما عرفته.. ومع ذكاء نغاير اللامع، وجدت فرانسيسكا أنها لطيفة وسهلة المعشر، لا تستسلم أبداً للغضب.

كانت الإضاءة شديدة الحرارة، «والأسلاك» ممتدة في كل مكان.. أما الماكياج فمريع.. ويلزم دهر لوضعه، عدا عن إزالته، وارتداء زي التمثيل في الحر الشديد.. لكن فرانسيسكا استمتعت بوقتها.. والخدعة هنا، أن تنسى فرانسيسكا دوليل تماماً. إنها الآن لوسيندا التي أحبت زوجها بجنون، وهي تعرف أنها في كل يوم تخسره بسبب قوى خارجة عن سيطرتها.. أحلام امرأة شابة تتشتت.. ورؤيا شاب تتحقق.. وذهلت فرانسيسكا، عندما انتهت من تصوير مشهد مؤثر، لرؤية أمها ونغاير تبكيان معاً، والدموع تسيل على خديهما.

صاحت (في) بعاطفة جياشة: «أوه.. يا إلهي حبيبتي.. سيلمع اسمك ويسطع نجمك!».

تخطت ببراعة كل المعدات لتأخذ فرانسيسكا بين ذراعيها.

ـ لديك الكثير من أمك.. على أي حال.

في كل ليلة، وبعد رؤية المشاهد التي صوّرت، كانت فرانسيسكا تعجز عن تصديق أنها ترى نفسها على الشاشة.. وتملكها جذل حقيقي وهي ترى وجهها كما لم تره من قبل.. وأدركت أنها جميلة جداً فالمرأة التي تراها على الشاشة فاتنة حقاً وهي تتكلم بعينيها ويديها أيضاً. وفرحت فرانسيسكا كثيراً لأنها أبلت بلاءً حسناً ممّا عزز ثقتها بنفسها.

صاحت في: «وهي لا تتحلّى بأي خبرة على الإطلاق».

كانت لا تزال تحاول فهم هذه الموهبة المفاجئة التي تتمتع بها ابنتها، فأضافت:

- وهذا يُظهر قوة عامل الوراثة.. ولسوف تستمتع آلي بهذا حين تراه.

كان غلين إلى جانبها دوماً، مستعداً لعرض المساعدة إذا احتاجت إليها.. مستعد للشرح، لإعطاء التعليمات وإبداء الإعجاب.. وهو جزء لا يتجزأ من كل شيء تقريباً، وليس فقط كاتب السيناريو، ولطالما قدرت نقاير زمالته.. كانت وغلين يأخذان استراحة الغداء معاً.. ويخوضان نقاشاً محتدماً حول كيفية تقدم الأمور.. في المساء، اعتاد غلين أن يطلب من فرانسيسكا التنزه معه بعد العشاء.. ولم تعرف فرانسيسكا كيف حصل هذا.. فبالتأكيد لم يبدر منها أي تشجيع، لكنها وجدته جذاباً، وسهل المعشر، أضف إلى أنها أعجبت بالعمق الذي يتميز به، وكان الفيلم الذي يجمعهما موضوعاً دائماً للتحدث.

***

كان والد غرانت يقول له دائماً: «لا تفعل شيئاً قبل أن تفكر به ملياً».

يا للسماء! ألم يتعلم؟ مع ذلك لم يستطع الانتظار ليعود إليها.. كل يوم كان يحثه أكثر على طلب يدها للزواج وأراد أن يضرب بكل الأمور الأخرى عرض الحائط.. لماذا لا يفصح عن مشاعره؟ لماذا لا يطلق لها العنان؟ لماذا لا يصيح بكل بساطة: الآن وقد وجدتك لن أتركك أبداً! لماذا؟ هل يصل حبه لها إلى درجة التضحية بالذات؟ هل الحب هكذا؟ أن تتفوق مصلحة الحبيب على مصلحته؟

خلال مهنته اعتاد تنظيم أعماله وتحديد نوعها ومواصفاتها خطياً،

ثم العمل على إيجاد حلول للمصاعب التي تواجهه، وهذا ما فعله عندما أوكل للمهندس مهمة رسم خرائط منزله العائلي الجديد. انصبّ تفكيره على أماكن لن تشعر فيها فرانسيسكا بالعزلة وحيث الطقس أكثر لطفاً.. بالرغم من أن سيدات أسرة كاميرون بمعظمهنّ صهباوات، إلاّ أنهن تكيّفن عبر الأجيال مع الجو.. لكنه كان يخاف على بشرة فرانسيسكا الجميلة، كما يخاف جامع التحف من تعليق لوحة رائعة في مكان معرّض لأشعة الشمس القوية. وكانت فرانسيسكا تحتل أفكاره وتجتاح كيانه وكأنها جزء لا يفارقه أبداً.

كان عائداً إلى أوپال، في يوم حار صافي.. ينظر من الطائرة إلى السواقي والأنهر الصغيرة المتشابكة التي يحدها شريط أخضر ضيق يمتد على طرفي قنوات الماء. كانت المنطقة التي تسيطر عليها أشجار «الأكاسيا» تمتد حتى الأفق لتربط ما بين بلاد شجر الأوكاليبتوس الأكثر قسوة والصحراء الحقيقية بسهولها الذهبية المليئة بالأشواك والأدغال، وحجارتها السوداء اللماعة وكثبانها ورمالها الحمراء.

كم يحب كل هذا! هذا هو موطنه الذي يحنّ إليه كلّما اجتاز حدوده.. قلب الصحراء الميت.. لكنه ليس ميتاً أبداً، إنه ينبض بالحياة النباتية الرائعة الفريدة من نوعها. لا شيء يوازي تكيفها مع مثل هذه البيئة الخشنة، حتى أشجار المطاط، كانت تنمو من الصخر المشبع بمياه العواصف التي تجعل من المناطق الداخلية الجرداء محيطاً عائماً بالزهور البرية.

الزهور! تلك الزهور العطرة التي تنمو في الصحراء وتتوهج باستمرار ميلاً بعد ميل، واسترسل غرانت في أفكاره ومشاعره المصوّبة دائماً نحو فرانسيسكا، وهي المرأة الوحيدة التي تحتل ثنايا أفكاره.

فرانسيسكا الجميلة! وردة زهرية اللون بأوراقها الحريرية. وردة

في البرية..

قد لا تكون هذه البيئة الملائمة لوردة، لكن الورود تعيش وتزهر في الحدائق المحمية في كيمبارا، التي تعتمد على آبار ارتوازية. ولقد لزم تلك الحدائق أجيال لتنتعش، والكثير الكثير من الوقت والمال، وإخلاص نفوس نساء كيمبارا.

أيام جده، كانت حدائق أوپال مميزة، ولو أنها لاتنافس حدائق كيمبارا.. ويتذكر أن أمه عملت جاهدة لبقاء هذه الحدائق.. يتذكرها تتحدث عن المصاعب.. ولقد يبست حدائق أوپال بعد أن اختطف الموت أمه بوقت قصير. لكن، ستعيد آلي هذه الحدائق إلى سابق عهدها.. فآلي من النوع الفعال.. وهي وفرانسيسكا نسيبتان، وصديقتان عظيمتان.

بدأ يتصور فرانسيسكا تسير عبر الحدائق التي سيخلقها الحب في الصحراء، وفي واحة من الزهور العطرة. وبالتأكيد، لو تمكن من تخصيص واحة لها، فهي لن تعيش فقط بل ستزهر. وسمع صوتاً صغيراً في رأسه يقول له: «هيا.. افعل! وانطلق إلى الأمام.. لا يمكنك التراجع».

كان الممثلون وفريق العمل يأخذون فترة راحة حين وصل غرانت المنزل في بداية بعد الظهر. كل هؤلاء الغرباء في منزل عائلته.. لكنهم سيدفعون جيداً، ومشروع الإنقاذ سيحصل على دفعة من المال.. رأته (في) أولاً وهو يوقف الجيب بعيداً عن الطريق الداخلية في ظل الأشجار. وانتظرته إلى أن وصل إلى السلم المنخفض.

نادت: «مرحباً غرانت عزيزي.. لقد اشتقنا إليك.. كيف كانت رحلتك؟».

انحنى يقبل خدها، فتلطخت شفتاه بطبقة من مساحيق التبرج

المستخدمة في التصوير. وأخرجت (في) منديلاً، تمسح به فمه.

ـ آسفة عزيزي.

رد بعفوية: «لا بأس (في)، سيزول بسرعة.. ورداً على سؤالك سارت الأمور بشكل جيد، ولن تتأخر الشركة المالية العالمية وشركة خطوط كاميرون عن توقيع الاتفاق.. وسينهي المحامون كل شيء.. أين الجميع؟».

أشارت (في) برشاقة إلى المنزل: «يأخذون فترة استراحة.. إنه عمل متعب. ولقد خرجت إلى هنا لأنتعش قليلاً، عدا هذا، كل الأمور تسير على ما يرام.. فرانسيسكا مفاجأة كبيرة.. إنها مذهلة حقاً».

رد بخفة: «ولِمَ لا تكون؟ إنها ابنتك».

كان الجميع يرتاح في غرف الاستقبال الرئيسية، فقرر غرانت أن يذهب مباشرة إلى غرفته، ليبدل ملابسه، ثم يبحث عن فرانسيسكا ونغاير. تفقّد غرفة الجلوس آملاً أن يلمح فرانسيسكا، وتساءل كيف تبدو في أزياء التمثيل القديمة الطراز. ذلك الخصر النحيل الذي يلفه بيديه، وشعرها الجميل المصفف بطريقة غير مألوفة، لن يستطيع الانتظار ليراها في اللقطات المصورة.. من المؤسف أنه اضطر للسفر عند بدء التصوير، لكنه لم يستطع أن يلغي اجتماعه مع درو، فهو غاية في الأهمية.

كانا يجلسان جنباً إلى جنب على مقعد مزدوج من الطراز الڤيكتوري.. وبدا جلياً أن ريتشاردز يشعر بحاجة إلى أن يمسك يدي فرانسيسكا في يديه. رأسه الأسود الشعر يميل نحوها، بينما هي تصغي باهتمام يتمناه أي رجل.. كانت التجسيد الصحيح للوسيندا بفستانها الرمادي القاتم، العاجي حول العنق، وتنورته الطويلة المفتوحة على المخمل الأحمر.. أما شعرها الأحمر الرائع فمشدود إلى الوراء.

إن ريتشاردز كاتب السيناريو.. فهل يعطيه هذا الحق بأن يجلس بحميمية هكذا مع فرانسيسكا؟ لقد ظن غرانت أنه سيطير فرحاً لرؤية فرانسيسكا، وأنهما سيسعدان برؤية بعضهما وكأنهما افترقا لسنوات.. لكن، ها هي ترفع رأسها لتنظر إلى عيني ريتشاردز.. بينما ريتشاردز ينظر إليها.. وهو واقع تحت سحرها على ما يبدو.

ماذا يجري هنا بحق السماء؟ مهما كان، فإن قلبه يتمزق.. ورفع نظره عنهما واتجه إلى غرفته وقد حلّت الغيرة مكان الترقب. لكن، لا وقت لديه ليضيعه، فلديه عمل. بإمكانه الاتكال على بوب كارلتون، إنما لن يدعه يحمل العبء لوحده.. كما أن بوب سيكون متلهفاً لسماع كل شيء عن اللقاء مع فورسايت.

ارتدى غرانت قميصاً كاكي وبنطلوناً ثم عبر المنزل، وهو يسمع الأصوات من غرفة الطعام الرسمية.. واضح أن الجميع عاد إلى العمل.. لكنه لن يقاطع شيئاً.. ليس الآن.

انطلق غرانت بسرعة، وهو يدرك أنه لو أراد رؤية فرانسيسكا، عليه أن يعود قبل المغيب.. لقد خطط لنقلهم جميعاً بنفسه إلى كيمبارا، لكن شيئاً في تصرف ريتشاردز المتملك، وهدوء فرانسيسكا المستكين، أزعجه.. وأخجله. أغضبه أن يشعر بالغيرة هكذا.. إنه إحساس جديد عليه، شيء لا يريد أن يتقبله.. وأدرك أن هذا الشعور يتماشى مع الحب.. إذ لم يعجبه تودد ريتشاردز الحميم لامرأة أحلامه!

انتظرت (في)، إلى أن خلعت زيها مع فرانسيسكا وسلمته إلى المسؤولة عن الملابس، قبل أن تذكر أن غرانت قد وصل.

استدارت فرانسيسكا بحدة نحو أمها، تشعر بخيبة الأمل على صعيدين، إهمال (في) وعدم سؤال غرانت عنها.

ـ أتعنين أنه لم يدخل ليلقي التحية عليّ؟

خلعت (في) شعرها المستعار لتضعه بحذر فوق رأس الدمية، وقالت: «ظننته سيفعل».

عاد غرانت لينقلهم إلى كيمبارا، لكن لم تتح له فرصة التحدّث إلى فرانسيسكا إلى أن وصلا كيمبارا، ودخل الجميع إلى الداخل.

سألته ريبيكا التي كانت تقف معهما على الشرفة: «ألا يمكنك أن تبقى غرانت؟ أعليك دائماً أن تكون على عجلة من أمرك؟».

خفف غرانت من وقع رفضه بابتسامة، وأجاب:

ـ في الواقع أنا مضطر ريبيكا، عليّ الاستعداد لعمل مجهد في «لاورا» غداً، شكراً على أي حال.. بلّغي تحياتي لبرود حين يأتي إلى المنزل، وقولي له إن كل شيء سار على ما يرام.

ـ هذا عظيم، وأعرف أنه سيكون سعيداً من أجلك.

وابتسمت بعينين لامعتين وقالت: «سأتركما لتتبادلا آخر الأخبار. ستأتي إلى حفلة الإعلان عن كتاب (في)، أليس كذلك؟».

ـ سأفكر بالأمر.

قالت ريبيكا مصرة: «يجب أن تأتي! سيكون من الرائع أن نخرج نحن الأربعة معاً في سيدني، أنت وفران، وبرود وأنا. حاول تأخير أعمالك.

ـ سأحاول.

وحياها بيده ثم قال بعد أن أصبح وفرانسيسكا وحدهما: «تبدو ريبيكا في أحسن حال».

رفعت فرانسيسكا حاجبها الأنيق، وعلّقت: «وهل هذا شيء عجيب؟ إنها واقعة رأساً على عقب في حب زوجها».

سمح غرانت لنفسه بتأملها، وهو يقول: «إذن فلديها ذوق ممتاز».

تفرس جيداً في عينيها الزرقاوين، وخط خدها وشكل فكها

الرائع، وثغرها الجميل.. وكانت قد أزالت كل مساحيق التجميل ولم يبق على بشرتها الجميلة سوى ذاك اللمعان المميز. وسأل:

ـ كيف حالك؟

أراد أن يضمها بين ذراعيه.. وذهل لأنه لم يفعل.

قالت تعترف: «كئيبة قليلاً.. لماذا لم تدخل لتلقي عليّ التحية حين وصلت؟».

رفع حاجبه بسخرية، وأجاب: «لأنني لم أرغب بمقاطعة جلستك الحميمة مع ريتشاردز».

لقد جالت كل الأفكار في خاطرها باستثناء هذه.

ـ أنت تمزح!

ـ في الواقع لم أكن يوماً جاداً كحالي اليوم. لقد ألقيت نظرة على غرفة الجلوس لأجدكما على مقعد الحب القديم، تمسكان بيدي بعضكما بحنان.

ـ ألا يمكن أن تكون خدعة من عينيك؟

ـ لا.

رفعت نظرها إليه بسرعة، وقالت: «لو صدر هذا الكلام عن غيرك، لقلت إنه يغار».

ـ ليس كثيراً.. ألا تعتقدين أنني قادر على الإحساس بالغيرة؟

ـ لن تسمح لنفسك بأن تتمادى إلى هذا الحد. والآن دعنا نرى.. كنا نجلس على مقعد الحب، أحاول أن أستعيد الذكرى.

أكمل: «كنتما متقوقعين في عالمكما الصغير الخاص.. ريتشاردز يحني رأسه نحوك، وأنت تنظرين بكل عاطفة إليه.. كان منظراً كالجحيم!».

لا بد أنه كذلك، ليثير فيه ردة الفعل هذه.

ـ الآن تذكرت.. أنا مجرد مبتدئة غرانت.. وهناك الكثير لأتعلمه.. كل شيء تقريباً.. وغلين كان لطيفاً معي.

ـ ألطف من نغاير؟ ظننت أنها هي المخرجة.. أليست مهمتها هي أن تصحح لك أخطاءك؟ وأن تذلل كل الصعوبات.

ـ نغاير تساعدني كذلك.. الجميع يساعدني.. ويعطونني كل الدعم الذي أحتاج إليه.

ـ إذن أنت تحبين العمل؟

وأنا اشتقت إليك كثيراً.

قالت فرانسيسكا: «أعتقد أنني سأتذكر التجربة لأنها تستحق العناء.. لكنني لا أنظر إليها بجدية كبيرة. وماذا عنك؟ أريد سماع كل شيء عن اجتماعك مع درو. كيف حال ايف على فكرة؟ هل تمكنت من رؤيتها؟».

هز رأسه، وأجاب: «ايف بخير، وترسل لك تحياتها.. لقد عاملاني باهتمام فائق، حفلة عشاء في منزلهما الجميل، ثم حفلة لباثاروتي.. لقاؤنا كان جيداً، درو وأنا لدينا أفكار متشابهة.. دعينا نسير حتى الطوافة؟».

أمسك ذراعها، في حين أن اهتمامه الوحيد كان أن يضمها إليه.

ـ لقد زرت مهندساً وأنا هناك.. نصحني درو به.

أحست كأن رأسها يكاد ينفجر فصرخت: «حقاً؟ أتعرف انني حلمت بهذا!».

ضغط على ذراعها، وسألها: «فرانسيسكا.. أنت لا تمثلين علي؟».

ـ لا.. أنا لا أمثل، ولا أقول الأكاذيب.. لقد حلمت فعلاً بأننا...

ولم تستطع أن تفضح نفسها.

- أنك والمهندس تناقشان الأمر، وكان حلماً واقعياً جداً. وفكرت به كثيراً. في الواقع، لقد استمتعت كثيراً وأنا أرسم بعض التصاميم. وقد تحب أن تراها في وقت ما.

- اذهبي واحضريها حالاً. سأنتظرك.

زحف اللون الأحمر إلى وجنتيها، وقالت: «أردت أن ننظر إليها معاً».

- إذن، عودي معي إلى أوبال الليلة.. أريد أن أكون قربك.. أحتضنك، أفتح كل الأبواب والستائر كي يقع نور القمر على بشرتك الجميلة المضيئة.

ترددت، شبه مستعدة للركض إلى المنزل: «أحياناً، أنت مجنون».

نظر إليها ساخراً، وسألها: «ألا تريدين المجيء؟».

تنهدت بنعومة هامسة، وردّت: «تعرف أنني أريد.. لقد اشتقت إليك كثيراً».

- حقاً؟

- أجل.

أمسك ذقنها ورفعه.. وقال بصوت منخفض: «مسكينة فرانسيسكا وأنا أيضاً اشتقت إليك».

وقفت جامدة وهو يعانقها... وشعرت بضراوة شوقه إليها، فهمست بعينين شبه مغمضتين:

- ماذا تريد؟

قال بصوت أجش: «شيء واحد فقط فرانسيسكا.. أنتِ.. أريد أن أقول لك الكثير».

- وأنا أريد أن أسمع الكثير.

كانا منجذبين جداً إلى بعضهما قلباً وفكراً.. لكن «في» اختارت هذه اللحظة بالذات لتخرج مسرعة إلى الشرفة وتتقدم إلى السياج، قائلة.

- حبيبتي.. نغاير تريد أن ترينا لقطات اليوم. لن تستطيع البقاء لرؤيتها، أليس كذلك غرانت؟

ابتسامته كانت ساخرة، وهو يقول: «عليّ أن أذهب حقاً «في»».

وبالطبع عليه الوصول إلى أوبال قبل حلول الظلام.. التفت إلى فرانسيسكا، قائلاً:

- من الأفضل أن تذهبي فرانسيسكا.. «في» مليئة بالمفاجآت، وها هي الآن تمارس قليلاً من الضغط الأمومي.

فكرت فرانسيسكا بذهول.. اللعنة، هذا صحيح! تولّت والدتها، البارعة في التمثيل، تدبير الامور مع زوجها السابق الذي محته كلياً من حياتها. غير أنّ فرانسيسكا هبّت للدفاع عنها قائلةً:

- إن أمي تحاول فقط أن تكون...

- أرجوك لا تقولي «لطيفة» لأنني أظن أن «في» تعارض علاقتنا. فهي لا تريدك أن تدفني في هذه البراري. وأنا لا ألومها إذ أنني أرى الأمور من منظارين مختلفين.

لمست فرانسيسكا يده بلطف ورقة، وقالت: «سأحضر دفتر رسوماتي غداً. أودّ أن أريك إيّاه فقد حلمت أيضاً أننا نطوف في واحة داخل هذه الاراضي الشاسعة. ربما يستحيل على المرء أن يغزو أراضٍ شاسعة كهذه غير أن بإمكانه أن ينشىء حديقة كبيرة، فيعيش بتناغم مع هذه البيئة ويقاوم الجفاف. أعتقد أنني أبالغ في طموحاتي لكنّ بإمكاننا استخدام المجاري المائية. يمكننا أيضاً أن ننشىء ميداناً للعب البولو،

ونزرع أشجاراً كثيفة كي تحتمي الجياد في ظلّها، وأماكن شاسعة للمشاهدين، ومواقف لركن السيارات. يشكل هذا تحدياً كبيراً ومضنياً لكنه مثير ومشوّق حقاً. يمكننا أن نبتكر رؤيتنا نحن بدلاً من التماشي مع الرؤية السائدة. . . ».

قاطعها غرانت قائلاً: «نحن؟ قلت نحن، أليس كذلك؟».

لم ترتبك فرانسيسكا بالرغم من أن والدتها كانت بانتظارها عند الشرفة بل قالت ببساطة: «نعم».

* * *

ـ ٦ رحلة وقرار

في اليوم التالي، لم يستطع مغادرة محطة «لورا» إلاّ بعد استراحة بعد الظهر. كان غرانت قد وظف طياراً جديداً، من سنّه تقريباً، ويدعى ريك والاس، وهو طيّار بارع وذو مؤهلات عالية، خوّلته الانضمام إلى فريق العمل. وكان من مسؤولية غرانت التحقق من عمل الطيّار الجديد، الذي نجح، بل تفوّق في عمله وفي تخطي الصعاب والمخاطر، فاطمأنّ غرانت لترك العمل بين يديه الماهرتين.

عند عودته إلى أوپال، وجد غرانت أن بطل الفيلم الاساسي قد حضر لتصوير مشاهده. وقدّمت نغاير أحدهما إلى الآخر.

حاول عدم الظهور وكأنه يبحث عن فرانسيسكا. . لكنه عندما عجز عن إيجادها اضطر لسؤال نغاير عن مكانها.

قالت نغاير: «لقد خرجت لركوب الخيل. . . ومع وجود مارك فكرنا في أن نصور مشاهده مع «في»».

وأضافت: «لم نكن بحاجة لفرانسيسكا، فقررت الخروج في نزهة مع غلين، الذي يمارس الفروسية خلال عطلات الأسبوع».

هز رأسه، وسأل: «هل لديك فكرة إلى أين اتجها؟».

WWW.ELMAANGA.COM

بدأت نغاير تفقد الاهتمام، وردّت:

- أوه.. لا أتصور إلى مكان بعيد. قالت فرانسيسكا إنك تحب أن تبقى قريبة من المنزل وأعتقد أنها تركت رسالة لك.

أدارت عينيها حولها، ولم ترَ شيئاً، ولوحت بيدها، قائلة:

- كانت تجلس هناك على الشرفة.. ترسم كما أذكر، لعل الرسالة هناك.

لم يجد رسالة، بل مجموعة رسومات مرتبة على الطاولة المستديرة.. إنه يكتشف شيئاً جديداً عنها في كل مرة.. ومن السخف أن يشعر بالغيرة من ريتشاردز. إنها امرأة فاتنة وساحرة، صادقة وحقيقية، لقد خرجت تتنزه، وستعود قريباً. جلس غرانت وأخذ رسماً من أعلى الكومة، فوقع نظره على رسم له.

إنه هو أو كما تراه فرانسيسكا، حدق بالرسم طويلاً يفكر بأنها جعلته يبدو أجمل بكثير مما هو عليه. إنه رسمه لا مجال للإنكار.. ورسم جيد.

واضح أن فرانسيسكا قد تلقت تدريباً جيداً.. لم يكن لديه فكرة عن موهبتها هذه، وهي تستحق أعظم تشجيع.

آخر دفتر في الكومة، احتوى على ما كان يسعى لرؤيته، نظرة فرانسيسكا لمنزل الأحلام. أول رسم كان للواجهة، بدا حقيقياً جداً بحيث أحس أنه قادر على مد يده وفتح الباب الأمامي.

فرانسيسكا! لقد أحب ما رأى. إنها ترسم دون جهد وكأنها تحب ما ترسم. كانت الواجهة عصرية بنوافذ زجاجية، عريضة يمكن أن تُفتح ليدخل هواء الصحراء.. أما القسم الاساسي من المنزل فيصل المدخل والأجنحة بشرفات واسعة، دون أعمدة كلاسيكية مزخرفة.. بل دعائم فولاذية رشيقة، ولكي تحافظ على التقاليد، صممّت مدخلاً مزدوجاً،

يشرف على مناظر رائعة للصحراء.

وتبعت رسومات أخرى..

بدا جلياً أنهما يفكران بالطريقة ذاتها.. عملت بمفردها، وخرجت بتصاميم لا تختلف كثيراً عما حلم به ويعود ذلك إلى بيئتها الانكليزية الراقية.

كانت رؤيتها تعكس رؤيته، بشكل غريب. منزل أنيق مع تسهيلات عصرية، حتى أنها رسمت بوابات المدخل إلى المبنى الرئيسي.. لم تكن مرتفعة لتحجب المناظر الممتدة، إنما بسيطة وعملية.

لم يكن هناك كلمات تصف أحاسيسه، كل ما عرفه أنه يريد أن يعيش هناك.. مع فتاة أحلامه: فرانسيسكا.

كان هذا ما أراده من المهندس، لكنه أدرك أنه بهذا يبسط الأمور، فماديسون قد دوّن كل أفكاره الأساسية، ورؤيته العصرية لصورة المنزل العائلي التقليدي. لكن فرانسيسكا بمعرفتها للموقع عملت من الخيال، إنها فتاة ذكية جداً.

من موقعه على الشرفة، كان أول من رأى الجواد الرمادي يصل، حزيناً، مطأطئاً رأسه، والرسن يتجرجر وراءه.

قفز غرانت عن كرسيه، ونزل السلم بقفزة واحدة ليجري عبر الحديقة إلى الأرض المعشوشبة. وسمع الجواد الصغير صفير غرانت، فرفع أذنيه في الاتجاه الذي صدر منه الصوت. كان جلد الجواد الرمادي مغطى بالعرق.. وبدا واضحاً أنه أجفل ولم يخفف سرعة جريانه إلا حين اقترب من المنزل وسمع أصوات ساكنيه. وأحس غرانت بالارتياح لمعرفته أن فرانسيسكا فارسة ماهرة. لكن ريتشاردز حسب قول نغاير ليس خبيراً بالفروسية، وأمل أن يكون قد اعتمر الخوذة الخفيفة التي تصر المزرعة على أن يرتديها الضيوف. فممارسة الفروسية عبر السهول

بقبعة، تصرّف خاطىء لأنها لا تؤمن حماية كافية للرأس.

هرول صبي من الاسطبلات ليمسك لجام الحصان الرمادي، وسأل: «ما الأمر معلمي؟ من أين أتى هذا؟».

رد غرانت متجهماً: «قل لي يا بوني، هل كنت موجوداً حين خرجت الآنسة فرانسيسكا وصديقها؟».

وكان بوني سعيداً للتأكيد: «طبعاً معلمي، وأنا من أسرجت لهما الجوادين. ولقد اختارت الآنسة فرانسيسكا «جيبسي»، جواد متوتر قليلاً، لكنني أعتقد أنها قادرة على السيطرة عليه.. ورضي الرجل «بسبوك» لأنه هادىء ولطيف».

ومرر بوني يده على جانب سبوك، ثم أضاف: «مع ذلك، لا يمكنك توقّع تصرفات جواد. أعتقد أنه جاء من مسافة بعيدة.. إنه مبلل بالعرق».

كبح غرانت سيل الشتائم التي خطرت له وقال: «إذن لقد وقع.. وأتمنى من الله يا بوني، أن تكون قد أعطيته قبعة صلبة؟».

نظر بوني إليه مباشرة وأجاب: «كنت سأعطيه معلمي.. لكن الآنسة فرانسيسكا أصرت.. واعتمر قبعة عادية مثلنا جميعاً».

ـ تعرف أنها نصف أوسترالية.. انزع السرج عنه بوني.. هل لديك فكرة إلى أين اتجها؟

لوح بوني بيده، وقال: «لم تقل الآنسة شيئاً.. ولم أعتقد أن من حقي أن أسأل».

قال غرانت: «لا بأس في هذا.. أراك فيما بعد يا صغيري. من الآن وصاعداً لديك إذني بسؤال الجميع إلى أين سيتجهون.. فلا تخشَ شيئاً.. سأعود إلى المنزل.. فمن المفترض أن تكون الآنسة فرانسيسكا قد تركت رسالة».

تبين أن الرسالة مع «في»، ممّا دفع غرانت إلى الاستغراب. وبدا أن «في» تعارض علاقته بفرانسيسكا، واعتذرت بشدة حين قال لها غرانت إنه كان عليها أن تعطيه الرسالة حال عودته.. وقال لها:

ـ أحد الجوادين عاد دون راكبه.

وأخذ الرسالة منها بعينين خضراوين لامعتين، وفتح المغلف، مضيفاً:

ـ لا تذعري، ليس جواد فرانسيسكا.. كانت تركب جيبسي.. بينما ركب ريتشاردز الرمادي سبوك، إنه جواد عمل هادىء، لكن، كبقية الجياد.. لا يمكن التكهن بما قد يفعل.

راح يقرأ بسرعة.. وقال: «لقد اتجها إلى بحيرة «السيدة الزرقاء».. رحلة سهلة. سأذهب إلى هناك».

وبدت «في» مهذبة جداً على غير عادتها، فقالت: «أرجو ألاّ يكون الامر خطيراً، فهمت أن غلين أكثر من مبتدىء بقليل. ولا يستطيع التعامل مع أي جواد نشيط، وفرانسيسكا، أعرف أن لديها الكثير من العقل الراجح.. لكنني أرجو أن تكون قد استعملته».

ـ وأنا أرجو ألاّ نرى عظاماً مكسورة. ولمجرد الحيطة، يجب أن أبعث برسالة إلى «الطبيب الملكي الطائر».

قالت «في»: «لا أعتقد أن غلين لديه فكرة عن وعورة الأرض».

سألها غرانت بحدة: «وهل تعرف فرانسيسكا؟ على أي حال يجب أن أذهب قبل حلول الظلام».

أخذ الجيب واتجه عبر منطقة السهول إلى الفردوس المفضل لكل مزرعة.. بحيرة السيدة الزرقاء، كل المزارع في «تشانل كونتري» لديها بحيرات مزهرة مماثلة.

ومهما كان الطقس حاراً، توفّر البحيرة بأشجارها المرتفعة

وزهورها الذهبية، وطحالبها العميقة، والأوركاديا الأرضية، برودة تشبه برودة الغابات. . فهم غرانت لماذا اتجهت فرانسيسكا إلى هناك، وشد فكه إلى أن آلمه. لن يصدق أنها بخير إلا اذا رآها. على الأقل، لا يمكن أن يضيعا، فيكفي أن يتبعا السواقي ليصلا إلى المنزل.

بعد مرور عشر دقائق، تراءى امامه منظر غير عادي. . في الضوء المتوهج المتراقص، ظهر له شكل صغير. كان الشخص يسير على قدميه ويسوق جواداً أسود لا يمكن أن يكون إلاّ جيبسي. . وعلى صهوة الجواد، شكل أكثر بروزاً، ينحني فوقه. انه ريتشاردز.

ودونما تفكير، قطع غرانت البراري، وغضبه يفوق الكلام. . كانت فرانسيسكا تسير تحت حرارة الشمس. ويا إلهي. . لعلها سارت لأميال! وإذا كان هذا صحيحاً فلا بد أنها جفت عطشاً. . واجتاحته موجة عداء نحو ريتشاردز. لكن لا بد أنه في حالة سيئة، إذ سمح لنفسه بركوب الجواد بينما فرانسيسكا تسير.

عندما اقترب، رأى أن فرانسيسكا قد توقفت، وامسكت بحزم بلجام جيبسي، ثم رفعت رأسها إلى ريتشاردز وكأنها تسأله عن حاله. . أوقف الجيب، وقفز منه ليتجه نحوهما بسرعة.

ـ ماذا جرى هنا؟

جال بنظره سريعاً على فرانسيسكا ليرى ما إذا كانت بخير. . ثم انتقل إلى ريتشاردز وهو يحاول التخفيف من غضبه. . وسأل:

ـ هل أنت بخير غلين؟

وتقدّم من الجواد يهدئه.

تمكّن ريتشاردز من أن يبتسم، وحاول أن يستقيم، وهو يقول: «لقد سقطت عن الجواد».

بدا هذا واضحاً من الخدوش على وجهه، وحالة ثيابه.

تقدمت فرانسيسكا لتقف قرب غرانت، وقالت:

ـ لا عظام مكسورة، أعتقد أنه يعاني من ارتجاج في الرأس، فهو مصاب بدوار.

قال يتهمها: «وهكذا، وضعته على جوادك».

ردّت بصوت معتدل: «دعك من هذا غرانت. . كنت مضطرة. . حالته لا تسمح له بالسير».

ـ وأنت تستطيعين السير.

ونظر إلى وجهها الجميل الحساس، كانت ترتدي القبعة الواسعة الأطراف، مع منديل كبير مزركش لحماية مؤخرة عنقها. . لكن وجهها بدا شديد الاحمرار، وقطرات العرق تجمعت على جبهتها. لقد احسنت فعلاً بترك شعرها منسدلاً وانزال كميّ قميصها القطني الاصفر. . لكنه استطاع أن يرى العرق يتصبب من جسمها وقد بلّل قميصها. قال بخشونة وهو يعود إلى سيارته:

ـ أول ما علينا فعله هو إعطائكما جرعة ماء.

لحقت به ووضعت يدها على ذراعه، مطمئنة، وقالت:

ـ لا بأس. . حرصت على ألاّ ننطلق بدون ماء. . ولقد توقّفنا لنتناول جرعة قبل أن نخرج من بين الأشواك.

ـ إذن يمكنك الآن أن تشربي المزيد.

وأخذ يصب الماء.

وقالت فرانسيسكا بجفاء: «لن تقف لتتفرج علي وأنا أشرب؟».

قال بحزم: «بلى. . سأفعل. وهناك شيء آخر أريدك أن تفعليه بينما أنزل ريتشاردز، ضعي هذه المنشفة على وجهك وعنقك».

راح يبلل منشفة صغيرة بالماء، ولم يكتفِ بإعطائها لها، بل تولى المهمة بنفسه. وانتزع القبعة وبدأ يبلل وجهها وعنقها بالماء البارد.

ثم سأل:

ـ أي نوع من الأحذية ترتدين؟

ـ حذاء جيد.

شهقت حين توقف عن تبليلها.. لكنها لم تعد تشعر بالحرارة الشديدة.

قال آمراً: «اصعدي إلى السيارة.. سأهتم بريتشاردز».

نفذت فرانسيسكا ما أمرها به ممتنة، وقامت بجهد حقيقي لتبدو منتعشة، لكن هذا كلفها كثيراً.. لعل غلين موهوب في عمله، لكنه لا يعرف كيف يسيطر على الامور. فبينما كانا يشقان طريقهما في الأرض الوعرة، أجفل الجواد. ولم يثر الجواد الرمادي إلاّ راكبه، فغلين ببساطة لم يحسن التواصل معه.. في الواقع اقترف الكثير من الاخطاء، ففم الجواد طري وحساس، ومعاملة غلين الخشنة له، لم تكن مشجعة. حاولت فرانسيسكا توجيهه اثناء سيرهما لكنها ادركت أنه لن يتعلم بسهولة، إذ لجأ إلى القوة بدلاً من اليدين لتغيير اتجاه الحصان. وكان من المحتّم أن يرميه.. وما زاد الطين بلّة هو أن غلين تذمر من اعتمار الخوذة منذ البداية قائلاً إنها تشعره بالحرّ، بينما أراد أن يتخلل الهواء شعره..

والمعجزة أنها لم تضطر إلى التقاط قطعه المتناثرة بعد وقوعه.. خدوش في الوجه فقط حين صدم الأرض بقوة، وصدمة قوية على رأسه وكل أعراض الارتجاج في المخ.. عانت فرانسيسكا كثيراً لرفعه على ظهر جيبسي. وأخيراً نجحت في ذلك بدون إثارة الجواد.. لقد كان جيبسي حصان سباق في ما مضى، وهو طيب جداً، بينما اغتنم الجواد الآخر سبوك الفرصة النادرة ليلعب دور حصان السباق.

أحست بثيابها مبتلة وثقيلة عليها.. وغرق قميصها في الماء بعد

أن وضع غرانت المنشفة عليه.. رفعت كميها، ثم أزالت المنديل الأزرق، كان قلبها يخفق في صدرها بعد مسيرتها الطويلة.. لكنها ستضطر للتحمّل ريثما تصل تحت الدوش البارد المنعش. أرادت في البدء أن تسرع بجوادها إلى المنزل لطلب العون، لكن غلين، وبالرغم من فقدانه وعيه، أصّر على ألاّ تتركه.. ولعلها اعتادت حياة البراري والمسافات الطويلة لكن غلين بدا خائفاً من الأدغال الشائكة، وقد اعتقد أنها لو تركته لن يجده أحد بعد ذلك، أو أن العطش سيودي بحياته.

استلقى ريتشاردز في مؤخرة السيارة. ولم تندهش فرانسيسكا حين نظر إليها غرانت بحدة، قائلاً:

ـ لماذا لم تعودي لطلب المساعدة فرانسيسكا؟ لقد صعبت عليك الأمور بالسير.

ولاحظ بارتياح أن الارهاق قد تلاشى قليلاً عن وجهها. في الواقع، بدت هادئة ومتمالكة أعصابها بشكل غريب.

تمتم غلين: «إنها غلطتي، لم أدعها تذهب.. ولا مانع عندي من أن أقول لك إنني وجدت الدغل الشائك مخيفاً جداً.. إنه شاسع ولا يدرك المرء هذا إلا بعد مجيئه إلى هنا».

قالت فرانسيسكا برضى: «تبدو أفضل حالاً غلين».

ـ لا بد أنكما تعتقدان أني غبي.

ولمَ لا؟ وبدا على غرانت الامتعاض وهو يفكر بهذا.

قالت فرانسيسكا بصوت ساخر: «ظننت أنك فارس أفضل».

ـ اعتقدت أنني كذلك، وهذا يثبت أنني خارج محيطي هنا.. لقد خرجت في السابق في رحلات لركوب الخيل.. لكن معظمها في خط مستقيم مع مجموعة.

سأله غرانت بغيظ، محاولاً إبعاد توتره: «وماذا حل بخوذتك؟».

لم يتوقع ريتشاردز من فرانسيسكا أن تجلس وتمسك يده فحسب، بل سمح لنفسه بأن تقود جواده وهو على صهوته، عبر الأشواك في حرّ بعد الظهر.. أما هو فلم يكن ليسمح لامرأة بأن تمر بمثل الرحلة الطويلة الحارة، في بلاد وعرة كهذه.

أدركت فرانسيسكا غضب غرانت، وخاطرت بأكذوبة: «لقد وقعت عندما سقط غلين، ولا بد أن الرباط قد انفلت».

تنهد غرانت، وقال: «أخبريني حكاية أخرى».

ـ آسفة.. وأنا خجلة من نفسي.. شعر غلين بالحرّ فخلعها.

لمعت عيناه، وسأل: «وما الذي أجفل الجواد؟».

وجد غلين صوته: «لقد قطع عليّ هذا الجواد متعتي.. لقد رفسته قليلاً في الجانبين لأجعله يغير اتجاهه، وانتهى بي الأمر وأنا متعلق به لإنقاذ حياتي.. فقد انطلق نحو الأشجار المنخفضة، وأحسست أن غصناً كاد يقطع رأسي».

تمتم غرانت بخشونة: «خاصة بدون الخوذة.. يقال إن الأمور بخواتمها.. لكنني لا أعتقد أنك ستركب الخيل بعد الآن».

لعل غرانت لم يعبّر جيداً إلاّ أن فرانسيسكا فهمت قصده.

عند عودتهم إلى المنزل، كان الجميع مجتمعاً على الشرفة. عندما اوقف غرانت السيارة عند أسفل السلم الأمامي.. حظي غلين بالحصة الكبرى من الاهتمام. لكن «في» أخذت ابنتها بعيداً وظهر على وجهها التوتر الذي عانته في الدقائق المنصرمة.

نظرة واحدة كانت كافية لفي:

ـ حبيبتي!

إن النزهة على ظهر الخيل مع غلين ريتشاردز لم تكن مثمرة.

ورأت أن قميص فرانسيسكا الزهري يجف بسرعة في الحرارة، وشعرها الطويل الجميل مشعث، ووجهها يحمل تعبيراً تتذكره «في» جيداً.. لطالما حاولت فرانسيسكا أن تكون الفتاة الصغيرة الطيبة وألاّ تسبب المتاعب لامها.

قالت متلهفة لطمأنتها: «لا بأس يا أمي. لقد وقع غلين، لكنه لم يكسر شيئاً من عظامه. لطمة على الرأس، وشيء من الكرامة المجروحة.

ضحكت «في»، وردّت: «وكأنني آبه لهذا! لا أدري لماذا أخذته أصلاً. كل ما يعرفه غلين عن الجياد هو ما تعلمه في السينما».

علق غرانت، محاولاً بصعوبة رسم البهجة على تعابير وجهه:

ـ لم أشاهد من قبل بطلاً يطلب المساعدة من البطلة الصغيرة.. فقد ركب هو.. وسارت هي.

هزت «في» رأسها، وقالت: «سأصيح بهذا عالياً.. اسمعي سوف أبحث هذا معه».

همّت بالذهاب لكن فرانسيسكا أمسكت ذراعها متوسلة:

ـ أرجوك لا تفعلي أمي. غلين ليس بخير.. لقد سقط عن ظهر الجواد.. وأتوقع ظهور الكثير من الكدمات والخدوش هذه الليلة.. إنه مصاب بالدوار ولا يقوى على السير.

نظرت إليها «في» محتارة، وهي التي تربّت في البراري.

ـ لكن طفلتي الحبيبة، لماذا لم تتركيه هناك وتعودي لطلب العون؟

ـ لأنه اهتاج كثيراً حين حاولت تركه.

قال غرانت بصوت ساخر: «إنها حالة ابن المدينة، لا يجيد التصرّف في الأدغال. اتركي الأمر «في».. فلدى غلين قصة حلوة يرويها بعد العشاء. أما الآن، فعلى فرانسيسكا أن تستحمّ وترتاح إذ

عانت الكثير في الحرّ».

دعكت «في» جبينها لتخفف من التجاعيد، وقالت:

ـ يجب أن أتفاهم معه غرانت.

توسلت إليها فرانسيسكا: «لا تزعجي نفسك أمي..».

وسمعوا موجة ضحك أخرى على رواية غلين المتشدقة عن وقوعه، وأكملت:

ـ كانت غلطتي.. عرفت منذ البداية أن غلين قليل الخبرة.. وكان يجب أن أتخلى عن فكرة الركوب.

وافق غرانت هازاً رأسه:

ـ وللسبب ذاته على الرجل العاقل أن يقول لك أن لا خبرة له.

مد يده يحيط خصر فرانسيسكا النحيل، وأضاف: «سأعطيك قميصاً نظيفاً لترتديه، بإمكانك استخدام إما الدوش أو المغطس في غرفة النوم الرئيسية، وسأجد لك مناشف نظيفة.. وبإمكان ريتشاردز أن يستخدم غرفة الدوش التي تقع في مؤخرة المنزل.. وهناك مناشف نظيفة.. سوف أحضر ميرا لتعاينه.

إنها زوجة المشرف على أوپال، وهي تعمل كممرضة منذ سنوات.

ـ أظنه على ما يرام فهو يجلس ويروي القصص.

وعدت «في»: «سأجعل من صلب عملي أن أقوّم كل هذا فيما بعد، أنا قادمة معك حبيبتي».

هزت فرانسيسكا رأسها، وقالت:

ـ لا أمي.. أنا بخير..! أريد فقط أن أستحم.. قد يجد غلين نفسه مصاباً بحروق سيئة من الشمس، فقد اهمل نفسه.

نظرت إلى ساعتها ثم إلى أمها وسألتها: «لم ينته عمل اليوم بعد..

أليس كذلك؟».

نظرت «في» حولها، وردت: «سنرى حبيبتي.. كنا نصوّر بعض مناظر البرق، حين عاد ذلك الجواد مرهقاً. لكن، الآن وقد عاد كلاكما، أتوقع أن تنهي تغاير المشهد. مارك وأنا جاهزان.. والعمل معه ممتع حقاً.

سأل غرانت «في» وهي تهتم بالرحيل: «هل يمكن أن تمرري رسالة إلى ريتشاردز «في». سأرسل في طلب مايرا لتأتي إلى المنزل وتلقي نظرة عليه. ستجد له رذاذاً مناسباً لحروق الشمس، كم مرة تحذرين الناس من ظروف الطقس هنا، إلا أنهم لا يهتمون».

كانت كل الغرف في أوپال واسعة، لكن غرفة النوم الرئيسية ضخمة، يتوسطها سرير بأربعة أعمدة قوائم من خشب الأطلس الأملس، الجميل جداً، ينسدل قماش غطائه المزركش حتى الارض المغطاة بالسجاد. كان كل الأثاث مألوفاً لفرانسيسكا.. المرآة المذهبة من طراز جورج الثالث، خزانة الماهوغوني، سرير النوم الصغير المطوي قرب الأبواب الزجاجية... بدا واضحاً أن أسرة كاميرون، قصدت «الوطن الام» لشراء هذا كلّه، أو أن كل الأثاث وصل مشحوناً.

قال غرانت وهو يقودها عبر غرفة الملابس إلى حمام كبير، جرى تحديثه من دون أن يفقد اللمسة التقليدية: «الحمام هناك».

سألت فرانسيسكا وهي تدرك أن الجناح الرئيسي لم يستخدم منذ أمد بعيد:

ـ وهل تركتم هنا بعض الشامبو؟

قال بارتياب: «لا أعتقد».

وتقدم إلى خزانة خشبية أنيقة يتخلّلها بعض النحاس، قائلاً:

ـ لكن، دعينا نرى.. راف وأنا لم نرغب في أن تسكن مدبرة منزل

معنا، كما في السابق. فأوكلنا مهمة تنظيف المنزل إلى مايرا وامرأتين غيرها.

ثم أعلن بصوت مليء بالرضى:

ـ إنه يوم حظك، هناك مجموعة متكاملة هنا. وقد نجد مناشف في خزانة الشراشف.. لا بد أن مايرا تترقب عودة راف وآلي إلى المنزل.

بدا هذا واضحاً من محتويات خزانة الشراشف. ورأت فرانسيسكا فيها ملاءات فراش، ومجموعة مناشف بألوان ثلاثة: أبيض، أصفر شاحب، وأخضر بلون التفاح.

قال غرانت بامتنان: «لست أدري ماذا سنفعل بدون مايرا وفريق عملها.. أتوقع أن تغير آلي الأمور، لكنها ستنال دوماً دعمهن.. إذن، ماذا ستفعلين؟ يمكنني أن أملأ المغطس لك إذا أحببت؟ وقد تستمتعين بالاسترخاء في الماء».

رفعت فرانسيسكا عينيها إلى عينيه فوجدتهما، ترسلان الشرر من التخيلات. قالت بقدر ما استطاعت من الهدوء:

ـ سأحب هذا.. لكنني سأرضى بدوش.. فهذا أسهل لغسل شعري بالشامبو.. إضافة إلى هذا، سترغب في أن تعيد الجميع إلى المنزل قبل غروب الشمس.

استمر بالتحديق بها بعينيه الذهبيتين، وقال:

ـ إنني مهتم بك أكثر.

ـ الدوش أفضل لي غرانت.

وراح قلبها ينبض بسرعة بالرغم من تعبها.

وتحرك غرانت فجأة، وهو فريسة أفكاره:

ـ حسن جداً، سأتركك وما تريدين.. بفضل مايرا، كل ما تحتاجينه موجود هنا.. خذي وقتك.. بعض هذه المناشف للحمام..

أنا وراف نكره القطع الصغيرة، ستتمكنين من لف نفسك جيداً وسأضع لكِ الملابس على السرير.

دونما النظر إلى الخلف، ابتعد، وأقفل باب الحمام وراءه. وهزت فرانسيسكا رأسها محاولة تنقية أفكارها.. تأثيره عليها غير عادي حقاً.. لم تكن تعتقد أنها قد تتأثر هكذا. وأدركت الآن أن السبب هو عدم التقائها بالرجل الذي يحرك أعماقها.. «المايسترو» القادر على التلاعب بأوتارها كموسيقى ذهبية.

خلعت ملابسها بسرعة، ووقفت تحت الدوش الكبير، بجدرانه الشفافة. أدارت الماء، وأبقت الحرارة دافئة.. انهمرت المياه عليها وكأنها الشلال، ورفعت وجهها لتبلل بشرتها.. كانت تحتاج إلى هذا حقاً. لقد مرت بأرض وعرة سيراً على قدميها، ولا يمكن لأحد فهم تأثير شمس البراري، وتقدير أثر أشعتها المبهرة إلا إذا اختبرها فعلاً.

مدت يدها إلى الشامبو، ودعكت شعرها مرتين ثم غسلته بالماء. عندئذٍ بدأت تشعر بتأثير رحلتها الشاقة. بدا لها أن ضباباً رقيقاً وكأنه غلالة، يرتفع أمام عينيها.. والساقان اللتان خاضتا عبر الأشواك بدأتا تشعران بضعف غير عادي.. قامت بجهد كبير لتستجمع قوتها، ومدت نفسها إلى الأمام لتتمسك. ولكن الضباب لم ينجلِ، بل راح يتكاثف.. لن يغمى عليها بالتأكيد؟ لم تمر بهذا منذ الطفولة، حين سقطت عن ظهر جوادها الصغير.

تأوهت بصوت مرتفع، وحاولت الخروج من تحت الدوش.. جرجرت نفسها بثقل حتى وصلت إلى غرفة النوم، وجاهدت لترتدي الثياب التي تركها لها غرانت.

في الجناح الغربي من المنزل، اتصل غرانت بمنزل الناظر، وسّره أن تجيب مايرا. شرح لها بسرعة ما حصل لريتشاردز، وطلب منها أن

تأتي إلى المنزل لتعاينه. وعندما انتهى شكرها على اعتنائها بالمنزل جيداً، ولتوفير كل شيء في حمام الجناح الرئيسي.. فقد ثبت أن عنايتها هبة سماوية.

راح يتخيل فرانسيسكا وهي ترتدي قميصه. وتنهّد ثم قرع باب غرفة النوم الرئيسية بخفة ليطمئن عليها، فلم يتلقَ أي رد. لا بد أنها تغسل شعرها.. وقبل أن يتراجع، سمع بذعر آهة تثير الاشفاق.

اقشعرّ بدنه وتشنجت عضلات معدته.. ماذا جرى بحق السماء؟ ما كان يجب أن يتركها. كان عليه أن يجلس أمام الباب.

طرق غرانت باب الغرفة مجدداً، وصاح: «فرانسيسكا؟».

وارتفع صوته.. ما هذا بحق السماء؟ يجب أن تسمعه.

لم يسمع رداً، إنما تناهت إلى مسامعه آهة أخرى جعلته يفتح الباب بقوة.

كانت مرمية على السرير بدون حراك.

ركض غرانت نحوها، وأخذها بين ذراعيه، متمتماً: «لا بأس عليك.. أنا هنا!.. فرانسيسكا!».

شدّها إلى صدره، وراح يتمتم: «فرانسيسكا.. حبيبة قلبي!».

وبعد لحظات سمع تنهدات خافتة تشير إلى أنها بدأت تستعيد وعيها.

قالت بصوت ضعيف أجش: «كاد يغمى عليّ».

ـ لا تتكلمي.

رفعت رأسها ببطء، وشعرها المبلل ينقط ماء. قال:

ـ أنا غاضب من نفسي لأنني تركتك لوحدك.. وأشكر الله على أنني عدت، كيف تشعرين الآن؟

مرت الصدمة الأولى، وبدأت فرانسيسكا تعي وضعها.

ـ ما زلت أشعر بالدوار.

قال بهدوء: «اللعنة!».

الآن وهي تستعيد وعيها.. عاد يشعر بها بشكل غير طبيعي.. إنها جميلة ومتناسقة الجسم.. أجمل صورة لأجمل فتاة يمكن لفنان مثل رينوار أن يرسمها.. ذاك الشعر الأحمر الذهبي، والبشرة المتوهجة والشفتان الورديتان، كانت تعطي التأثير ذاته. راحت دقات قلبه تتسارع، إذ لم تخالجه هذه الأحاسيس الرقيقة من قبل.

ـ مايرا قادمة إلى المنزل لتلقي نظرة على ريتشاردز.. وسأطلب منها أن تلقي عليك نظرة كذلك.

كانت ترتجف قليلاً، تحت تأثير المشاعر المتدفقة في عروقها. قالت محتجة: «أنا بخير».

وهزت رأسها فوقعت بعض قطرات الماء عليه.

ـ سأحضرها على أي حال، لن نخسر شيئاً.

وقف غرانت وسار نحو الحمام، ليعود بمنشفة جافة أخرى، وقال: «خذي.. جففي شعرك».

أمسكت المنشفة، وقالت: «الماء يبلّل الغطاء».

ـ ومن يهتم؟ هل تعتقدين أن آلي سوف تترك كل هذا دون أن تغيره؟ ارفعي صوتك إذا آلمتك.

مع ذلك جلست بهدوء، بينما أرجع غرانت شعرها إلى الوراء وأخذ يدعك أطرافه، وكأنه كان يفعل هذا طوال حياته. تابع تسريح شعرها إلى أن أنهى العمل.

ـ هل لديك فكرة كم تبدين صغيرة؟

ونسي كل شيء حين مالت نحو جسمه النحيل القوي.

همس في أذنها: «يجب أن أذهب لأحضر مايرا».

لكن رأسه انحنى أكثر، وضمّها بين ذراعيه، متمتماً: «فرانسيسكا!».

وبدأ يهمس في أذنها كلمات حب أذابت قلبها.. واخترقتها أعمق فأعمق، وكأنها نفق يصل إلى روحها..

ظنت أنها ستفقد الوعي مجدداً لكن من السعادة هذه المرة.

ـ يا إلهي.. ماذا دهاني؟

ثم ابتعد عنها بجهد ظاهر.. وقال بصوت منخفض مغرٍ قبل أن يتحول إلى أجش وحاد:

ـ أنت بحاجة إلى العناية لا إلى العناق.. هيا فرانسيسكا.

ضعفها الجسدي وحده هو الذي أنقذها من مشاعره. كان يريدها بقوة بحيث أحس برأسه يدور.

وعندما نظرت إلى عينيه، قالت بنعومة لم يسمعها من أي امرأة من قبل: «أحبك.. غرانت».

سألها بحنان: «وهل أنت مستعدة لأن تقولي هذا حين تتحضّرين للوداع؟ أراهن أنك لم تقولي شيئاً لوالدك عني».

وكانت كل روحه تناديها.

كان هذا صحيحاً.. لم يبدُ لها يوماً الوقت مناسباً لمفاتحته بالموضوع. كانت رسائلها إليه تحتوي على الكثير من الأخبار، عن الناس والأماكن، والعائلات، وعائلتها في كيمبارا، أسرة كينروز، وجيرانهم آل كاميرون.. لكن، ما لم يكن والدها ممتازاً في القراءة بين السطور، لن يعرف أبداً أنها وقعت في حب غرانت كاميرون، وبجنون.. لماذا لم تقل له؟ هل تفتقد إلى الشجاعة؟ تعرف جيداً أن والدها لطالما وقف إلى جانبها أثناء غياب والدتها، لكنها خافت من فكرة أن تجرحه هو الأب الحبيب، وأن تبدد أحلامه.

حذّرها غرانت: «يجب على شخص ما أن يخبره فرانسيسكا، قولي له مباشرة.. أنت مدينة له بهذا. وإذا لم تستطيعي.. أستطيع أنا.. عندئذٍ تعرفين ما سيجري».

لامست أصابعها الرقيقة وجهه، ولاحقت الشق على ذقنه، ثم سألته: «وكيف ستقول له؟».

هل يعرض عليها حلاً سحرياً؟

كشر ساخراً: «وماذا تعتقدين يا حلوتي.. سوف أسافر إليه بالطائرة».

ـ هكذا؟

ـ ولِمَ لا؟ والدك لا يهمني.. إنه يهمك ويهم «في» التي لا تهتم عادة لأي كان..».

وقف غرانت مصمماً، ثم قال: «سأذهب لأحضر مايرا، لتلقي نظرة عليك.. لِمَ لا تستلقين في الفراش»؟.

ـ سأستلقي في السرير الصغير قرب الباب.

حاولت أن تقف، وساعدها غرانت على ذلك. كانت قدماها تؤلمانها، لكن ماذا عن عنقها وظهرها؟ كيف ألحقت الأذى بنفسها؟ الرد واضح.. لقد حاولت رفع غلين عن الأرض، ثم وضعه على جيبسي.. والغريب أنها لم تشعر بأي ألم وقتئذٍ.. لكنها ستعاني من كل النتائج الآن. لم تشأ أن تتذمر، فهي التي جلبت كل هذا لنفسها. كان عليها أن تتركه وتعود لطلب النجدة.. لكنها كانت تعرف أنها ستفعل الشيء عينه مرة أخرى.. ولطالما قالت لها آلي إنها رقيقة القلب.

كانت مغرية جداً في قميصه الفضفاض الذي بدت فيه بريئة كالطفلة.. مع ذلك مثيرة جداً، وبشكل لا يصدق.. راح شعرها

الناري الذي سرّحه لها يجف بفضل حرارة شمس بعد الظهر.. وأخذ يشع نوراً، ويتوهج على بشرتها العاجية.. كانت نظراتها تخترق قلبه وكيانه.

أمسك ذقنها بين أصابعه، يرفع وجهها إليه، ينظر إلى العينين الشاردتين بتعبير جدي.. وقال بصوت أجش مليء بالمشاعر:

ـ لقد حلمت بك.. ليلة بعد ليلة.. أريدك بجانبي. أريد أخذ هديتك الثمينة لي.. وهي فعلاً هدية فرانسيسكا.. أريد أن أكون الرجل الوحيد في حياتك.. وإلى الأبد.

بدا أن الغرفة كلها امتلأت بألوان المغيب المذهلة.. وتصاعدت الدموع من داخلها، وقالت:

ـ وأنا لك إلى الأبد..

لمع الانتصار في عينيه، وأطبقت ذراعاه عليها بقوة حتى كاد يرفعها عن الأرض.. ارتسمت على فمها ابتسامة الرضا.. وهمست:

ـ هل تحبني؟

وتراجعت عنه قليلاً: «قلها.. قلها».

ـ أقولها؟ بل سأثبت لك هذا.

كان جسمه كله يرتعش.. وأدرك أنه لا يريد بديلاً في العالم سوى أن يتزوجها.. ويا إلهي كم يريد هذا.. سيفعل أي شيء من أجلها، سيطير إلى انكلترا، سيسعى إلى والدها.. سيكلمه، سيطلب موافقته.. وهو مدين له بمثل هذا الاحترام. ومع وجود فرانسيسكا إلى جانبه، سيبني شيئاً له قيمة كبرى، ولا داعي لأن تتخلى عن حياتها القديمة كلياً.. سيسمح لها بأن تزور والدها دائماً، ووطنها، وأصدقاءها، وسيجد الوقت اللازم ليرافقها. إنها المرأة الوحيدة التي ستجعل حياته مناسبة، وهو غارق في حبها.

دخلت (في) لتتفقد ابنتها، فوجدتها وغرانت غارقين في عناق صامت، وأحست أن ليس من حق أحد أن يقاطع موقفاً حميماً كهذا.. لكنها يجب أن تزعجهما، واكتشفت في نفسها ندماً. كانت تعرف أنهما يحبان بعضهما، لكن لم يكن لديها فكرة عن مدى عمق مشاعرهما.

ما رأته شيئاً يتعذّر تغييره، شيئاً يجب أن ينجح. إنه زلزال عنيف من المشاعر لم تعتقد يوماً أن ابنتها الجميلة قادرة عليه. فرانسيسكا صغيرة جداً، غير خبيرة، محمية طوال حياتها. والآن، يبدو أن غرانت كاميرون قد علمها كل شيء عن الأحاسيس.. هذه ليست علاقة عابرة تحدث في العطلة، كما خشيت.. قلب فرانسيسكا مع غرانت كاميرون، بينما كانت تعتقد أن هذا القلب في مكان آخر.

بقيت (في) مسمرة، عاجزة عن الحراك، حتى أحس غرانت وفرانسيسكا أخيراً بوجودها.. لكنهما لم يفترقا بسرعة، ولم يبدُ عليهما الذنب أبداً. ابتعدا عن بعضهما ببطء.. وهزت فرانسيسكا شعرها الطويل لتبعده عن وجهها. ابتسم غرانت ساخراً، وعلّق:

ـ (في).. أنت فنانة بالدخول والخروج.

لو أنها أصغر بثلاثين سنة لاحمرّت خجلاً.

ـ آسفة.. لم أقصد أن أتطفّل. لكنني ظننت على الأقل أن فرانسيسكا مستلقية.. وماذا تفعلان بحق السماء؟

أسرعت إلى ابنتها، والذهول على وجهها.

تقدمت فرانسيسكا إليها وقالت:

ـ يا إلهي أمي.. ألا ترين؟ إنه قميص رجالي، قميص غرانت.

قال غرانت مبتسماً: «وهو فاتن جداً.. في الواقع (في).. لقد أخطأنا في ترك فرانسيسكا لوحدها.. لقد أغمي عليها».

بدت «في» مرتاعة، وسألته: «وأنت أنقذتها؟».

ـ أشكر الله لأنني كنت موجوداً.. عدت لأطمئن عليها فسمعتها تتأوه.

لو لم تكن ابنتها لخرجت بتعليق ساخر.. لكنها أسرعت إلى ابنتها، وسألتها:

ـ هل هذا صحيح حبيبتي؟ أنت مخلوق رقيق.

قال غرانت: «حتى آلي كان يمكن أن تفقد الوعي بعد مشقة كالتي مرت بها فرانسيسكا».

ـ لا أعتقد هذا عزيزي.. آلي لن تكون حمقاء لتشفق على هذا الرجل.

ـ ألي محظوظة لأنها تنال اعجابك أمي.

صاحت «في»: «أوه.. تعرفين جيداً ما أعنيه! لا تستائي مني حبيبتي أنت رقيقة القلب كثيراً».

بدت على وجه غرانت، ابتسامة ساخرة، وقال:

ـ هناك حقيقة واضحة.. إنها لا تثير المشاكل.. لم يسمع أحد كلمة تذمر منها. قد تكون فرانسيسكا رقيقة القلب، وأنا أحبها لهذا، لكنها تعرف كيف تعتني بنفسها.. لديكما الكثير لتقولانه.. سأذهب لأحضر مايرا.. قد تبدو فرانسيسكا بخير الآن، ولكن يجب ألاّ ننسى أنه قد أغمي عليها.

علقت (في): «بالنسبة إلى فتاة أغمي عليها، تبدين جميلة كما قال غرانت. لقد وصلت إلى قرار هام.. أليس كذلك؟».

ردت فرانسيسكا ببساطة: «كنت أعرف منذ البداية أن غرانت لديه مخاوف، مثلك تماماً أمي، وربما لا يزال.. لكن زواجنا لن يكون بين شخصين مختلفين.. زواج بين حضارتين، بلدين مختلفين.. غرانت وأنا توأم. نحن متفقان على كل شيء تقريباً.. على الأشياء الهامة

أقلّه. ولقد أدرك أخيراً أنني سأتمكن من التكّيف مع عالمه، وهذا أمر عرفته منذ سنوات. لقد أحببت بلاد أمي منذ كنت في العاشرة..».

فكرت (في) طويلاً: «كان يجب أن أرى هذا حبيبتي.. لكن كالعادة كنت منهمكة بنفسي».

ـ أعرف من أعماق قلبي أمي، أن ما أقوم به هو الصواب. غرانت وأنا سنساعد بعضنا.. إنه يثق بي، ويحترمني، ويعرف أنني قادرة على مساعدته.. وهذا هو الطريق إلى زواج حقيقي.

لامست (في) خد ابنتها بحب وتواضع على غير عادة، وقالت:

ـ هل تدركين كم أنت محظوظة حبيبتي؟ لقد لزمني نصف عمري لأجد نصفي الآخر، دايفد يحبني كما أنا.. لكن والدك أرادني أن أتغير.. مع ذلك كان يعني لي الكثير في وقت من الأوقات.

قالت فرانسيسكا بلطف، وهي الوفية لوالدها دائماً:

ـ لقد أحبك أمي.

جادلتها (في) وهي تستعيد كل ذكرياتها:

ـ الجميع أحبني حبيبتي.. فقد كنت مرغوبة جداً.

ابتسمت بسحر، وقالت: «وأنا كذلك».

تقدّمت إلى السرير قرب الأبواب الزجاجية واستلقت عليه.

ـ أريد من أبي أن يوصلني إلى عريسي بيده، أريد أن أتقدم إلى حياتي الجديدة ويدي على ذراع أبي.

ـ طبعاً حبيبتي.. لكن يجب أن تخبريه بأمر غرانت، بدون تأخير. ومتى رأى كم أنت سعيدة، أنا واثقة من أنه لن يغضب، ولن يضغط عليك.

وهذا ما تمنته (في) بصدق.. تعرف أن «الايرل» شغوف بابنته، ولو قارن غرانت بجيمي وادينتغتون، لكان غرانت الرابح الأكبر.

قالت فرانسيسكا: «يريد غرانت أن يطير إلى إنكلترا ليرى والدي.. يريد أن يكلمه بنفسه.. وأنا لست خائفة من ألا يتفقا. فأنا ووالدي متشابهان من جوانب عديدة.

وافقت (في): «لقد أظهرت فعلاً أنك من نسب عريق، لقد أخذت أشياء صغيرة من كلينا».

ـ سأذهب معه، هناك أشياء كثيرة أريد شرحها لأبي.. أشياء كثيرة أشكره عليها.. أما بالنسبة إلى أبي وغرانت.. أعتقد أنهما سيجدان الكثير ليتحدثا به.. ولا شيء سيمنعه من المجيء لرؤيتنا من وقت لآخر.

ـ اعتمدي على هذا حبيبتي، خاصة حين ترزقين بأول طفل.

وضحكت المرأتان بصوت رائع.

وفكرت (في): متى تحوّلت ابنتها من طفلة فاتنة إلى امرأة تتولى أمر أكبر التحديات في الحياة؟

وأجابت نفسها: واضح تماماً أن هذا حصل بينما كنت مشغولة عنها.

* * *

٧ ـ يليق باللايدي

خلال الأيام العشرة التالية، أُنهي التصوير في تلك المناطق النائية وانتهى دور فرانسيسكا الصغير في الفيلم، فعادت نغاير وغلين وفريق العمل إلى سيدني مصطحبين معهم ڤي ودايڤد.. كان لا يزال أمام (في) بعض المشاهد، في سيدني وخارجها، فضلاً عن التحضير لحملتها الكبيرة لإطلاق كتاب سيرة حياتها، والمقررة في نهاية الشهر.

قال غلين مبالغاً في الاعتذار وقت الرحيل:

ـ شكراً لإنقاذك حياتي فرانسيسكا.

وأمسك يدها يطبع عليها قبلة طويلة دافئة، ثم أضاف:

ـ لا أستطيع الانتظار لرؤيتك مجدداً في حفلة (في).. لقد كنت ممتازة جداً في دور لوسيندا.. أفضل ما يمكن أن نأمل.

وافقت نغاير على هذا بعناق وقبلة:

ـ دعينا نواجه الأمر حبيبتي.. يمكنك أن تحظي بمستقبل مهني لو شئت.

وفكرت فرانسيسكا: ليس وأنا أفكر بمستقبل أفضل.. وأبقت أخبارها المهمة للوقت المناسب.

لم ينزعج غرانت من تصرفات ريتشاردز لأنه حين سيرى فرانسيسكا في المرة القادمة ستكون مخطوبة، فالخاتم في جيبه. لقد وصل في اليوم السابق، وهو يخطف الأنفاس! يناسب أميرة. لقد اتصل

بصائغ العائلة منذ أسبوع، ليحدد مطلبه.. ذهب أبيض ١٩ قيراط مع أفضل نوعية الماس.. ترك الأمر له، وفكر في أن حجراً ثميناً بقيراطين سيكون كبيراً على يد فرانسيسكا الصغيرة الأنيقة.. رسم له التصميم الذي يريده غير آبه بالثمن.. فهديته لها يجب أن تكون مناسبة. ويجب أن يكون الخاتم فاتناً، يشبه الزهور مثل فرانسيسكا نفسها.

ولم يُضع الصائغ وقتاً أبداً بل أرسل رسمين يحتويان على ماسة كلاسيكية في الوسط، واحدة بيضاوية والأخرى دائرية، يحيط بها أرفع أنواع «الآرغيل» أو الماس الزهري. في الرسم الثاني، كانت الماسات الزهرية متراصة، وعرف على الفور أيهما يريد.. كانت تتناسب مع التصميم الذي رسمه ما عدا الحجر المركزي البيضاوي الشكل، الذي بدا أفضل من فكرته. والألماس الزهري حوله مثل الأوراق.. وأحس بشوق كبير لوضع الخاتم في أصبعها.

قال لها وهما يراقبان الطائرة ترتفع في السماء:

ـ لقد طلبت مني ربيبكا أن أبقى للغداء.. بعد ذلك يجب أن أعود إلى أوبال لأشرف على أعمال الصيانة.

وأخفض رأسه، وعيناه تلمعان كالجوهر:

ـ ماذا لو قمنا برحلة مفاجئة إلى مايورا؟ أريد أن أريك شيئاً.

نظرت إليه بسعادة، وقالت: «سيكون هذا جميلاً! أردت أن أريك رسوماتي، لكن مع زحمة التصوير لم يكن لدي متسع من الوقت.. كما أن قُمي كانت على عجلة من أمرها وأرادت أن ينتهي كل شيء قبل إطلاق الكتاب. وأنت في الواقع، لم ترد على سؤالي.. هل ستأتي؟».

ـ بل سأصر على المجيء.. فريتشاردز الذي لا يزال يمثل دور الحبيب سيكون موجوداً.. من قال إنه يحق له طبع القبلات على يدك؟

ـ لكنها لم تعن شيئاً.

ـ هذا ما أرجوه.. وتذهلني وقاحته.

* * *

بعد عشر دقائق من رحلتهما عبر البلاد، توقفا ليراقبا زوجاً من الايموس، أحد أكبر الطيور في العالم، يرقص رقصة التزاوج المضحكة. كان الذكر يتصرف بجنون، يرفس بساقيه الطويلين، ويرفع نفسه عن الأرض.. ولم تستطع فرانسيسكا أن تكف عن الضحك.. من ناحية أخرى كانت الأنثى تتباهى بما يشبه اللامبالاة، وتدور حول الذكر، وهي تنفش ريشها.

ضحك غرانت، وقال: «تريده أن يدور حولها لاهثاً.. الايموس مخلوق مميز، ليس لسرعته فقط.. بل لقدرته على العيش في أكثر المناطق جفافاً. لكنه يسعى إلى الاحتماء بين الشجيرات الشائكة الكثيفة حين يبني أعشاشه، وبيضه كبير جداً كما تعلمين، ويتطلب أكثر من شهرين ليفقس».

ـ هذا وقت طويل للأم المسكينة.

ـ ألا تعنين الأب المسكين؟ الذكر هو الذي يأخذ هذه المهمة على عاتقه.

ـ هذا جيد.. الكنغر الأم، على الأقل تحمل صغارها في كيسها.. إنها جميلة جداً.. مشهد مذهل أن تراقب قطيعاً من الكنغر يقفز عبر البراري الشاسعة على ساقيه الخلفيتين الطويلتين.. ومع ذلك حين يسير ببطء، يستخدم قوائمه الأربعة.

ـ يبدو أنك قمت بدراسة جيدة عنها.

ولم يقل لها إنه رأى رسوماتها الرائعة، ليس بعد.. فرانسيسكا تتمتع بقدرة على المراقبة الصحيحة.

حين وصلا إلى موقع المنزل المقترح، شاهدا عن بعد، قطيعاً كبيراً

من الماشية يرعى الزهور الحمراء التي تنبت على التلال الرملية. بإمكان الماشية أن تعيش على هذه النباتات لأشهر بدون ماء.

قال غرانت بهدوء، وهو لا يزال وراء مقود الجيب: «راف وآلي سيعودان قريباً».

- سيخيب أملهما لأنهما لن يحضرا حفلة أمي.. لقد أرجأت إطلاق الكتاب بما يكفي ليتناسب هذا مع تصوير الفيلم.

قال غرانت: «وزواجها كذلك».

- إنها لا تريد ودايقد أن يرتبطا في غياب آلي.

وابتسمت له بسرعة، وأضافت:

- أمي وآلي مقربتان جداً.

سألها بلطف: «وهل يزعجك هذا؟».

وارتاح حين هزت رأسها نفياً، وقالت:

- ليس تماماً.. فأنا أحبهما معاً.. وأمي تفهم آلي أكثر مما تفهمني.. ويجب أن أتزوج لأقنعها أنني كبرت.

قال غرانت ممازحاً على حساب (في): «طالما أنك لا تفعلين هذا ثلاث مرات.. فلنخرج من هنا».

والتفّ حول السيارة ليساعدها. أخذ يدها، وأحب الطريقة التي شبكت فيها أصابعها بأصابعه.. كانت مايورا تتوهج بالأحمر الناري تحت الشمس الحارقة، وبدا النسيم وكأنه يهبّ من مكان مجهول، ويتسبب بصوت غريب ينبعث من الكهوف الفارغة.

قال غرانت، وهو ينظر إليها: «إنه صوت الأرواح.. هل أنت خائفة؟».

- ولِمَ لا يكون هناك أرواح؟ هذه بلاد قديمة للغاية.. مليئة بالخصوصيات.

حان الوقت ليقول لها.. هنا في هذا المكان المحبّب على قلبيهما.

- لقد رأيت دفتر رسوماتك.

رفعت رأسها، بعينين مندهشتين، وسألته: «لِمَ لم تقل لي؟».

- لأنني تأثرت بها كثيراً.. ولم أرغب في أن ينظر إليها أحد آخر.. ولا سيّما رسومات بيتنا، فهو لنا فقط.

- وهل أعجبتك؟

- بل أحببتها فرانسيسكا.. كما أحبك.. لن أستطيع أن أرسم مثلك، لكنك تقرأين أفكاري. ولقد أقنعني دفتر رسوماتك بأنك تحبين هذه البلاد حقاً.. الزهور والحيوانات التي رسمتها بدقة، فكرتك عن الواحة في الأماكن المعزولة، أثبتت لي كم أن أفكارنا تعمل بشكل متقارب.

لامست وجهه الذهبي بحنان، وبحب عميق، وقالت:

- هذا يعني الكثير لي غرانت.

لفتها ذراعاه القويتان:

- هذا ما أشعر به.. وسامحيني لأنني ارتبت يوماً في قدرتك على التكيّف مع هذه الأرض الغريبة.. لكنها ليست غريبة أبداً.. إنها جزء من إرثك الغني. والآن، لدي شيء لك.

نظر حوله، ثم استقر على صخر كبير، أحمر اللون تتخلّله عروق صفراء قاتمة.

- تعالي واجلسي هنا.

تركته يقودها، وهي تشعر كم هي ثمينة بالنسبة إليه.

- ماذا يجري؟

خالجها إحساس مثير سرى كالدم في عروقها.

قال بلهجة واعدة: «سترين».

حين جلست، جثا على ركبتيه بحركة مسرحية أمامها.. وابتسم لها ابتسامته المشرقة.

- لايدي فرانسيسكا دوليل.. أتوسل إليك أن تتزوجي بي.. أنا أعبد كل شعرة من شعرك الأحمر.. وأنا مستعد لأن أتحدّى والدك الايرل.. أريد موافقته على زواجنا، أريد بركته.. أريد كل ما يجعلك سعيدة. يمكن أن نتزوج في انكلترا إذا كان هذا ما تريدين، أعرف أنك ترغبين بأن يوصلك والدك إليّ. وأنا واثق من أن هذا سيسعده.. وواثق كذلك من أنه يريد هذا. سأخاطر في السماء الرمادية وبرد شتائكم، سأخاطر بكل شيء، لو قبلت الزواج بي. وإذا رغبت في أن تبقيني جاثياً على ركبتي أكثر من هذا.. سيشرفني في هذه الأثناء أن تضعي خاتمي في إصبعك.

أخرج علبة صغيرة كحلية اللون من جيبه، وفتحها.. ثم سحب الخاتم:

- يدك، سيدتي اللايدي.

ازداد عمق ابتسامته وهو يسجّل الترقب الجذل على وجهها الجميل.

وأحست بيدها ترتجف، وقالت هامسة: «تفضل».

وأخذها، ليدس خاتم الخطبة الماسي في أصبعها الناعم.

- ليس سيئاً.. مناسب تماماً.. أحبك فرانسيسكا، وسأحبك دائماً.

همست: «أوه.. غرانت!».

ومدت يدها نحو الشمس، تراقب اللمعان المشرق.. الماس الزهري! جميل جداً.

سألها بحنان: «لن تبكي يا حبي الرقيق؟».

وأحس أن عواطفه تحركت بشكل غير عادي.

- بالطبع سأبكي.. هذا شيء إجباري في مثل هذه المناسبات.. إنها دموع الفرح!

ورمت بنفسها على صدره، وأطبقت ذراعاه عليها قبل أن يفقد توازنه..

أخذت تقهقه ضاحكة.

- ابقي مكانك.. أريد أن أضمك إلى صدري.

- لكنني لم أقل لك ما إذا كنت سأتزوجك.

تحرك برشاقة ومدّ يديه ليمسكها بقوة ويثبتها في مكانها.

- قولي لي هذا فيما بعد.

ثم أخفض رأسه، فتمتمت:

- آه.. غرانت...

ومات الضحك.. وكان هناك مشاعر حارقة في صوته وفي عينيه.. وأحست بلهيب، يشعل شراييها.

قال لاهثاً: «على أي حال.. لن أقبل برفضك».

وكان واثقاً منها تماماً.. الرجل المسيطر.. لكنها أحبت هذا..

ورمت ذراعاها حول عنقه، لتمرر أصابعها في شعره البني الذي يغطي مؤخرة عنقه. إنه رجل وسيم.. وسيم!

- أحبك!

قال بحب شديد: «هذا ما ظننته».

- لا أستطيع الانتظار لأتزوجك.

- وأنا لا أستطيع الانتظار لأتزوجك.

- يجب أن نقابل والدك.. يجب أن نجعله يبتهج بأخبارنا..

ويجب ترتيب أمر العرس.. وكيف سأتمكن من ترتيب كل هذا دون أن ألمسك؟

اختنق صوتها بالمشاعر وأجابت:

- لكنني أريدك أن تفعل.

كان يتنفس بخشونة ووجهه الوسيم يتحلّى بقوة أذهلتها.

لن أقترب منك إلاّ في الوقت والزمان المناسبين، لن نستعجل الأمور.

- أنت واثق من نفسك جداً، غرانت كاميرون.

ضمها مجدداً إلى صدره وأرجع شعرها المنسدل على وجهها.. وقال لها وهما متعانقان:

- لدي أخبار ستعجبك.

وعلت ابتسامة صغيرة ثغره.

- سيحضر ذلك المهندس الذي قابلته ليشاهد الموقع، لقد رتبت كل شيء.. وسنريه رسوماتك.. وندعه يعمل على أساسها.. سوف أنظم الأمور لكي يدوم شهر العسل طويلاً.. في أي مكان من العالم تختارينه. فيجي، باتا غونيا، انتراكتيكا، جبال الألب السويسرية. وما أن نعود، حتى يكون منزل أحلامنا جاهزاً.

***

الخاتمة

جرى عرس كاميرون ودوليل في انكلترا، في شهر حزيران من العام التالي.. وأقيمت المراسم في كنيسة سانت توماس في القرية القديمة الملاصقة لأملاك والد العروس، «ايرل مورايا» في تلال هاميشاير الممتدة.. وأقيمت حفلة الاستقبال لمئتي شخص، على أراضي «أورموند هال»، مقر أسلاف دوليل، والتي في ذلك الوقت من السنة تخطف الأنفاس بجمالها.. مناظر حدائق كالحلم. قيل إن الزفاف كان من أجمل الاعراس منذ عقد. لذا كان هناك الكثير من الصور في صفحات المجتمع، للذين لم يكونوا محظوظين بما يكفي ليكونوا من بين المدعوين.

صورة رائعة للعروس وللعريس، وهما يبدوان في غاية السعادة، ظهرت على غلاف مجلة أوسترالية. منحت الصحافة الأوسترالية العروس، «اللايدي فرانسيسكا دوليل» لقب «العروس الإنكليزية» وهي فعلاً إنكليزية من جانب والدها. إلا أن والدتها كانت الممثلة الأوسترالية المولد، المعروفة عالمياً، ڤيونا كينروز، التي لمعت على مسارح لندن، منذ ثلاثين سنة.. فيونا كينروز، التي أصبحت الآن السيدة دايڤد ويستبوري، كانت فرداً من عائلة كينروز الأوائل، وابنة الراحل السير اندرو كينروز، ملك المواشي الأوسترالي الأسطوري،

الذي كان أجداده رواد هذه الصناعة في أوائل عهدها.

وكان هناك صور ملونة للعروس وحدها، تبدو رومانسية فاتنة في ثوب حريري، بياقة على شكل قلب، والقسم الأعلى مزين بدانتيل محبوك جميل يصل إلى التنورة الطويلة. على رأسها وضعت طرحة من «التول» مثبتة بتاج عائلي جميل، مرصع بالماس واللؤلؤ وزيّن عقد من اللؤلؤ والماس جيدها.. وحملت باقة ورد أبيض جميل في يدها.

كان هناك صور للعروس مع الفتيات الصغيرات اللواتي حملن لها الزهور، بدت لقطة فاتنة.. والعروس مع المرافقات، الفاتنة اليسون كاميرون، المولودة كينروز، وصيفة الشرف، وابنة خال العروس.. واللايدي جورجينا لامب والآنسة سيرينا ستريكلاند، صديقتا العروس منذ الطفولة. كلهن في ثياب زهرية متناسقة.. وكان هناك كذلك صور للعريس مع مرافقيه، الإشبين والأخ الأكبر راف، سيد المزرعة التاريخية الأوسترالية «أوبال داونز» وصديقهما المقرب، برود كينروز، سيد المزرعة الشهيرة كيمبارا، وزوجة السيد كينروز الجميلة ريبيكا، التي بدا واضحاً من الصور أنها حامل، وقد بدت مشرقة، في ثوب أزرق بسيط وأنيق، وقبعة زرقاء مذهلة.

وكان هناك صور جميلة للعروس مع والدها، ايرل موراي، ابتسم فيها كلاهما. وصورة للسيد والسيدة دايفد ويستبوري.. وكانت السيدة ويستبوري ترتدي أجمل قبعة زمردية وبذلة حريرية من قطعتين وحذاء مع حقيبة يد متماثلين تماماً.

قبل أنّ شهر العسل الذي شمل السفر بالطائرة إلى انتاريكتيكا، كان رائعاً حقاً بكل ما في الكلمة من معنى.. زار العروسان السعيدان أماكن بعيدة مثل اسكندنافيا وكندا، حيث أراد العريس البحث عن أفراد من عشيرة كاميرون هاجروا إلى تلك البلاد قديماً.

كانَ يوماً ممتازاً لعرس ممتاز.. هذا ما أعلنت عنه المجلات الثلاث التي غطت المناسبة. كانت السماء زرقاء والشمس تشق طريقها عبر سحب صباحية مبكرة، لتشع على الزوجين السعيدين. كل من كان حاضراً، ومن شاهد الصور في المجلات فيما بعد، وافق تماماً على أنه زواج حب واضح.

أليس هذا رائعاً!

* * *